نفحة من الإيمان





الاهداء

الى أخى العزيز « احسان عبد القدوس »

اهدى كتابى هذا

أهديه اليه بصفته « أولا » ..« أخا عزيزا » ..رغم أن له من المزايا العامة فى نفوس القراء والجماهير ما يفوق كثيرا هذه الميزة الخاصة فى نفسى . فهو كاتب سليم التفكير ، صريح الأسلوب ، جذاب التعبير ، شجاع ، صريح غير معوج ولا ملتو .

ومع ذلك .. ورغم أن هذه الصفات لا تتوفر فى كثير من كتاب هذا الزمن رغم أنها قد جعلت منه فى فترة وجيزة كاتبا من أبرز الكتاب السياسيين ، رغم كل هذا فأنا أتجاهلها فى اهدائى .. وأهدى كتابى اليه لمجرد أنه أخ عزيز .

قد يكون فى هذا نوع من ايثار النفس والأنانية وقد يكون نوع من الغرور أن أميز أخ عزيز ليوسف السباعى أكثر من أن أميزه بأنه كاتب شهير معروف .

ولكنى حر فى اهدائى .. وفى اعتبارى لميزة المهدى اليه . ولى فى ذلك عذر قد يقبله صاحب الاهداء والقراء وقد لا يقبلونه ولكنه ليس عليهم

سوى الرضوخ له رضوا أم لم يرضوا .

هذا العذر هو أن صفة « الأخ العزيز » فى حد ذاتها صفة مميزة لأن الانسان لا يكون لى أخا عزيزا حقا الا اذا توفرت فيه شروط ومميزات ، تجعل من مرتبة « الأخ العزيز » مرتبة تفوق كثيرا غيرها من المراتب . هذه الشروط والمميزات ، هى أن يكون الانسان ذكيا ، وفيا ، مرحا ، لطيفا ، غير مغرور ولا متكلف .

فاذا أنا أهديت الكتاب الى احسان لأنه « أخ عزيز » فأنا أعنى بذلك أنه قد توفرت فيه تلك الشروط والمميزات .

أنى لأذكر منذ بضع سنوات أنى أهديت كتابى « اثنى عشر رجلا » الى توفيق الحكيم وعندما قرأ احسان الاهداء ثار عليه وعلى وقال ان توفيق الحكيم وطبقته من الكتاب لا يستحقون أى اهداء لأنهم أنانيون مغرورون لم يحاولوا أن يمدوا أيديهم لمعاونة الجيل الذى يليهم من الكتاب وسألنى هل حاول توفيق الحكيم أن يكتب عنى مرة لينقدنى أو ليقدمنى الى قرائه .

وقلت له يومئذ أن الكاتب المجيد سيبرز بلا معاونة أحد وانى أهدى كتابى الى أحب الناس الى لا الى اكثرهم نفعا لى .

ولا أظننى نقضت رأيى فى اهداء أى كتاب من كتبى ، فانى قد أهديت كتبى الى نفسى والى أبى وأمى وأولادى وأم أولادى واخوتى وعمى والى أحب الأصدقاء الى ..

فاذا أهديت كتابى الآن الى احسان ، فلسبب واحد هو أنه أضحى حبيبا الى نفسى .

يوسف السباعى

لا تسألوا

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن
أشياء ان تبدلكم تسؤكم ﴾
« قرآن كريم »

الساعة السابعة صباحا وشارع « الخيامة » ما زال يتثاءب وينفض عن عينيه آثار النعاس .. والحركة تدب فيه بطيئة واهنة ، والعمال من سكان الحى يحثون الخطأ وقد وضعوا لفافات الخبز تحت آباطهم ودسوا أيديهم فى جيوبهم ولفوا رؤوسهم وأصداغم بالتلافيح الصوفية اتقاء صقيع الصباح . والدكاكين ما زالت مغلقة الا دكان « أبو الفضل » بائع الفول والطعمية فقد فتح على مصراعيه وفاحت من داخله رائحة الطعمية تفتح الشهية وتهيج الخياشيم .

ومن احدى الحارات المتقاطعة بدأ الحاج « درويش » بعباءته وطاقيته وجلبابه الأبيض وخطواته المتئدة المتثاقلة وقد أخذ يجرى حبات المسبحة بين أصابعه ويحرك شفتيه بتمتمة خافتة .

ووصل الحاج الى حانوته المواجه لحانوت « أبو الفضل » وألقى بتحية الصباح على جاره ثم اخذ يفتح باب الحانوت وقد اتجه ببصره الى السماء وأخذ يهتف بصوت خافت « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم » .

كان الوقت ما زال مبكرا عن الموعد الذى تعود الرجل فيه أن يفتح حانوته . ولذا فقد أثار الأمر دهشة المعلم « أبو الفضل » الذى مد عنقه من وراء قدور الفول وصاح بالحاج :

- خير ان شاء الله .. ان الوقت ما زال مبكرا .

- ان شاء الله خيرا .. ربنا لا يعطى الا الخير .. لقد استقيظت مبكرا ففضلت الحضور الى الدكان .

وبدأ الحاج يتشاغل بنقل الغرارات ورصها خارج الدكان ثم أخذ يقوم بأعمال النظافة اليومية التى تعود أن يقوم بها كل صباح .. وهو يبدو على أتم حال من الهدوء والسكينة .. ومع ذلك فقد كان صدره يصطخب بالمشاعر ، وكانت نفسه تحترق قلقا واضطرابا .

كان الحاج رجلا مؤمنا تقيا .. وكانت بوجهه اشراقة ايمان ووسامة طيبة ووداعة .. ولم تكن رزانته وتثاقل مشيته عن كبر فى السن .. فقد كانت تلك هى طبيعته منذ الصغر . كان دائما نموذجا للتقوى والورع .. حتى لقد أطلق عليه لقب الحاج وهو ما زال صبيا يقيم الصلاة وأترابه مغرقون فى اللهو واللعب .

وكانت حياته مثلا للتضحية وانكار الذات .. فقد مات أبوه وخلفه صبيا دون أن يورثه سوى أسرة عاجزة من أم وثلاث بنات ، ليس لهن من يعولهن سواه . واضطر الحاج درويش أن يترك المدرسة ويتولى حانوت البقالة الذى كان يملكه أبوه .. والذى كان على شفا الافلاس .. فاستطاع بصبره وجلده أن ينقذ الحانوت . وأن يعول أمه وأخوته .. ووقف حياته على تربيتهن ومنحه الله من لدنه الستر والتوفيق فتزوجن زيجات مرضية ضمنت لهن حياة مستقرة هانئة .. من الله على أمه بميتة هادئه ناعمة بعد أن أطمأنت على مصير بناتها .

ووجد الحاج درويش نفسه وحيدا بعد موت أمه .. وقد أنفق زهرة شبابه في تربية أخواته وهيأ لكل منهن حياة راضية .. أما هو فقد أدبر عمره أو كاد دون أن يجد من حوله زوجا ولا بنين .

لقد كان يرفض الزواج خشية أن يشغل عن أمه وأخواته بزوجه وأولاده .. ومرت به الأيام ومرضاتهن هي جل بغينه وسعادتهن هي هدفه في الحياه حتى تفرقن من حوله .. وذهبت كل منهن الى غايتها . وبقي هو وحده تتساقط من حوله أوراق الخريف .. وتتسلل الى شعره خيوط الشتاء البيضاء وتتسرب الحياة من بين أصابعه .

وأخيرا قرر أن يتزوج فيتمم نصف دينه ، ويحقق لأمه أمنيتها التي طالما تاقت اليها ، ويقضي لنفسه حقها في الحياة .

ورزقه الله « ببنت الحلال » .. فتاة من عائلة كريمة طيبة . كانت له نموذجا للزوجة الطيبة الراضية القانعة فحق بها عليه قول الله تعالى ﴿ أنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

وسارت به الحياة ناعمة هانئة ، ونفسه قريرة راضية ، لا يبغي مزيدا من هناء ولا مزيدا من نعيم ولا يكاد يقلقه في حياته سوى أمر واحد كان يرى أن الزمن كفيل بتحقيقه .

لقد مرت به الأيام ، دون أن تظهر على أمرأته علامات حمل ولم يكن الرجل بالعجول الطامع أو الفتى المتلهف ، ولكنه رغم ذلك كان لا يستطيع أن يقاوم تلك الرغبة الملحة في البنين ولا الشوق الجارف اليهم .

ولم يجد سوى الله ملجأ ، فأخذ يدعوه دعاء المؤمن الواثق ، ان الله لا يخيب له أملا ، ولا يرفض له دعاء وهو لا يطلب الشيء الكثير ، انه يطلب حقا له من رب كريم رحيم .

ومرت السنون دون أن تحمل امرأته . ولكنه لم يضق بها ولم يحزن ولم ييأس ، لقد كان ايمانه بالله عظيما وظل يواصل دعاءه ورجاءه حتى حقق الله أمنيته .

كان ذلك فى يوم أغر ميمون .. عندما أنبأته أمرأته ذات صباح أنها تشعر بعلائم حمل .. ولم يستطع .. وهو الرزين الوقور أن يكتم فرحته فاندفع يضمها بين ذراعيه .. وعيناه مغروقتان بالدموع وهو يهتف بنبرات مرتجفة « الحمد لله .. الحمد لله » .

وهو يذكر أنه قد أصابه القلق بعد خشية أن تكون العلامات خادعة .. وان تكون امرأته واهمة فظلت نفسه تتأرجح بين الأمل واليأس والثقة والقلق حتى أكدت له الأيام أن الأمر حقيقة لا غبار عليها .

وبات بعد ذلك مطمئن النفس قرير العين .. يرتقب المولود بنفس لهفة .. وقلب مشتاق .. حتى قرب الموعد .. وبات الوضع قاب قوسين أو أدنى .

وفى الليلة السابقة لم يغمض له جفن فقد جاء لامرأته المخاض ، وحلت الساعة المرجوة .. وبدأت آلام الوضع تلح عليها .. فتنطلق منها الصيحة تلو الصيحة .

ولقد كانت ثقته فى نفسه وفى جلده وصبره لا حد لها .. ولكنه فى الليلة الماضية كان أشبه بريشة تلعب بها الريح .. لا يكاد من قلقه يستقر على موضع .

انه لم يرقد .. ولم يجلس .. لقد كان أشبه ببندول الساعة .. دائم القلق دائم التأرجح .

ومرت به الليلة طويله مرهقة .. وقد وقف ينصت خارج الحجرة ممسكا

قلبه بيديه .. منتظرا بعد كل صيحة بشرى . ولكن الصيحة تخفت ويعقبها سكون ثقيل وصمت جاثم .

وتسلل ضوء الفجر من النافذة وهو جالس فى مقعده مسندا رأسه بين كفيه مغرقا فى التفكير .. وخرجت « القابلة » من الحجرة تنبئه أن امرأته قد استغرقت فى النوم وأنه لا ينتظر ولادة عاجلة وسألته أخته أن يذهب الى الفراش ليستريح برهة .

ولقد حاول فعلا أن يرقد فى فراشه ولكن كان لا يكاد يغمض جفنه حتى يهب فزعا على صيحة موهومة .. وأخيرا ترك الفراش وارتدى ثيابه ، وصمم على أن يذهب الى الحانوت علّه يتشاغل هناك بما يخلصه من ذلك الانتظار الثقيل والقلق الممض .

بمثل هذه النفس القلقة المضطربة كان الحاج « درويش » يتحرك فى حانوته يعبىء لهذا زيتونا بقرش وبزن لآخر أقة من الأرز . وهو مستمر فى تمتمته وتسبيحه . وبين آونة وأخرى يرفع رأسه الى أعلى ويدعو بحرارة وايمان « يا رب .. رحمتك يا رب » .

وكان الحاج « درويش » يرجو فى قرارة نفسه – أن تضع امرأته ولدا .. ولكنه لم يكن يجسر على أن يفصح عن رغبته فى دعائه . فقد كان يرى فى هذا طمعا منه .. ولا يفتأ يكرر بين آونة وأخرى انما يجيب على رغبته الخفية – كل ما يأتى به الله نعمة وبركة .

وبينما هو منهمك فى لف قطعة جبن لأحد الزبائن .. وصل الى مسمعه صوت عندليب .. فمس الصوت من نفسه موضعا حساسا .. وبدا البشر على وجهه وسرت الى نفسه موجة رجاء وتفاؤل . انه ما سمع صوت العندليب الا وأصابه خير .

ومد الشارى يده بثمن الجبن فرفض أن يأخذه وقال له ضاحكا :

- خذها حلاوة بشرى أتوقع سماعها .

وفى تلك اللحظة لمح من بعيد خانمته الصغيرة زينب وقد أقبلت تعدو من الحارة .. ولم ينتظر حتى تصل اليه الخادم ، وما حاجته الى الانتظار وهو يعلم ما أتت من أجله ؟ وأسرع يحمل الغرارات الى داخل الحانوت .. وفى غمضة عين كان قد أغلق الحانوت وانطلق يهرول تجاه الدار والفتاة فى أعقابه .

ووصل الى البيت وهو يلهث وقد فصد جبينه عرقا .. وقطع السلم أربعا بعد أربع .. ودفع باب الشقة فاذا به يصطدم بصرخة حادة :

ويحه .. أما زال الوضع مستمرا ؟
أذن فيم كان حضور الخادم اليه ؟
أم ترى أن الصراخ قد يعقب الولادة . كما يسبقها ؟
من يدرى .. انه لم يحضر من قبل حالات الولادة .

ولكن الصرخة تلتها صرخات .. أجل صرخات متوالية من حناجر متعددة .. تماما كتلك الأصوات التى يسمعها فى مأتم .

واندفع كالمجنون الى الداخل .. فاذا بجمع من النسوة يحطن بامرأته وقد استلقت مسجاه على فراشها جثة هامدة ومن حولها الملاءات البيضاء وقد غلبتها حمرة دماء قانية .

وأمسكت به أخته تقوده الى خارج الحجرة وتطلب منه الصبر والصمود وتنبئه بأن الطفل قد نزل مقلوبا وأن الولادة تعذرت حتى راح ضحيتها الأم والابن .

أجل .. الابن .. فقد كان المولود .. ولدا !
هكذا ؟

أبمثل هذه السخرية والشماتة يعامل الله أمثاله من المؤمنين والاتقياء ؟
أبمثل هذا الجزاء يجزى الله عبيده الطيبين الأبرار ؟

ولم يبك الرجل .. بل انطلق يقهقه فى سخرية . ان الصدمة كانت أقسى من أن يتحملها فانهارت مقاومته وتحطمت أعصابه وتبدد ايمانه .

ووقف فى حجرته وحيدا .. وقد أمسك بالمسبحة يقطعها وينثر حباتها .. ضاحكا مقهقها .

هكذا ؟
أهذه هى بشرى العندليب ؟
لقد خدعه الله .. خدعة مقصودة مدبرة .. محكمة التدبير .

أبعد كل هذا الايمان والتقى .. والاحسان .. والحياة النقية التى لم تشبها شائبة وزر ولا عكر صفاءها ذرة شر ..جزى جزاء سنمار ..
انها والله منتهى الشماتة .

وهكذا ظلت قهقهته تختلط باصوات الصراخ .. حتى أحس بفرط التعب والاجهاد وشعر بقواه تنهار ، فتهاوى على أحد المقاعد وأخفى رأسه بكفيه واندفع فى نوبة من البكاء ...

وفعل البكاء فعله .. وهدأت أعصاب الرجل .. وتمالك نفسه وخرج من حجرته .. يباشر عمله نحو تشييع الجنازة واستقبال المعزين .

واستمر طيلة يومه يتحرك حركة آلية .. وهو يتجلد ويقاوم حتى انتهى اليوم .. وآب الى داره بعد انفضاض المعزين .

وخلا الحاج « درويش » الى نفسه فى حجرته .. كما تعود أن يخلو بها فى صلواته الطويلة .. ولكنه لم يطق أن يجلس على سجادة الصلاة فقد كان يحس نفورا منها .. كانت نفسه مكلومة من ربه ومن خالقه .. لقد تبدد ايمانه ..

وانطلقت روحه هائمة شاردة . كافرة بكل شيء .. وكان من العبث أن يعيدها مرة ثانية الى قيود العبادة الأولى ..

وعلام العبادة والتقى والورع ؟

ومن يعبد ؟

لو أنه استطاع أن يرى فيما أصابه حكمة .. أو مبررا .

وتمدد الحاج على فراشه مقروح الجفن مسهد العينين وقد أمعنت روحه فى الهيمان والشرود .. وأخذ يقلب رأسه على الوسادة متململا ويرنو بعينيه من خلال زجاج النافذة وقد بدت النجوم تتلألأ فى ظلمة السماء .. ثم أخذ يتمتم قائلا :

ـ أنت موجود يا الهى .. أنت ترى وتسمع .. لم فعلت بى هذا وأنا ما عصيتك مرة واحدة ؟ .. لم فعلت هذا .. لم .. لم .. ؟ لقد خدعت منك أربعين عاما .. قضيتها فى عبادتك والتسبيح بحمدك .. ماذا كنت فاعلا بى لو أنى زنيت وارتكبت الفاحشة وشربت الخمر ؟ .. لم تركتنى أطمئن الى عدالتك وحكمتك .. ثم خذلتنى فى النهاية هذا الخذلان الشديد ؟ .

وعاد رأسه يتململ وعينه تدمع .. ثم اندفع مرة ثانية فى نوبة من البكاء .. نهض على أثرها من الفراش ووضع عباءته على جسده ودس قدميه فى الحذاء ثم غادر البيت متسللا فى سكون .

وخرج الرجل يهيم على وجهه فرارا من نفسه ومن تفكيره . وأمعن فى السير بين الطرقات المظلمة الضيقة ، حتى وجد نفسه أمام باب المسجد .

وتردد برهة .

أيدخل أم لا يدخل .. ان بوده أن يهتدى .. وأن يعيد روحه الضالة الهائمة الى رشادها وايمانها .. ولكنه لا يستطيع .

أيحق له أن يدخل بيت الله .. ونفسه كافرة بالله ؟

وماذا فى ذلك .. ألم تجعل بيوت الله للهداية ؟
ومد يده الى قدميه فخلع نعليه ثم تقدم الى المسجد متثاقل الخطا مكروب النفس .. وتحرك حتى وصل قرب القبلة ووقف قبالتها .

ورفع يديه الى أذنيه مكبرا .. هاما بالصلاة .. ولكنه لم يستطع .
لقد كان ذهنه شاردا .. وروحه عاصية ..
وخر الى الارض راكعاً فى يأس ، ورفع رأسه الى اعلى وأخذ يتساءل فى عناد واصرار ... لو أعلم السبب .. ما حكمتك يارب .. كيف تأخذها هكذا على غرة .. وهى القوية السليمة التى لم تمرض قط .

وفجأة وصل الى سمعه صوت تمتمة . وتلفت الى ناحية الصوت فلمح فى ركن قصى من أركان المسجد فقيها متربعا على الأرض وقد أخذ يهز رأسه كأنما هو منهمك فى القراءة ، ثم علا صوته . يتلو ﴿ قل أن الأمر لله .. قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ .

وأحس الرجل برجفة تسرى فى بدنه .. وأخذ يهز رأسه فى عناد ويتمتم قائلا .. كتب عليهم القتل ؟ ولم تكتب عليها القتل . ما حكمتك أريد أن أعلم .. لم .. لم ؟

وصمت الفقيه برهة .. ثم عاد يتلو قوله تعالى :
﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء ﴾ .

وهتف الرجل ساخرا .. علمه ! .. أى علم هذا ... لا أفقه منه شيئا ؟ ليعلمنى .. اذا شاء الآن ؟ متى يشاء ؟ ان لم يشأ الآن ؟

مرة أخرى عاد صوت الفقيه يردد :
﴿ لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ﴾ .
وهز الرجل رأسه فى يأس وأجاب :
- لن يسوئنى شىء اكثر مما فعلت بى لقد بلغ السيل الزبى لقد ضلت

نفسي .. قل عن حكمتكم فيما فعلت بى حتى أعود الى رشدى ، لم أخذت زوجتى وولدى ؟

وصمت الصوت برهة ثم عاد يردد :

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾

وصرخ الرجل صائحا بصوت يائس مبحوح

- لا ..لا ..لا أريد أن أسمع .. هذا كذب ..

ووصل الى أذنيه الصوت يردد بقية القول ﴿ فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ﴾ .

واندفع الحاج الى الفقيه هاجما عليه فى جنون وهو يصيح ..

- هذا كذب .. هذا كذب ..

ووصل الى مكان الرجل يعدو فى أنحاء الجامع كالمجنون ، ثم أصابه الكلل فخر على الأرض ، وبعد برهة أفاق الى نفسه ورفع رأسه الى السماء وقال بصوت باك ... الحمد لله . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

وفى اليوم التالى عاد الرجل الى حانوته ، منكس الرأس محدودب الظهر ، كسير القلب ، لقد استعاد ايمانه بالله ولكنه فقد ايمانه بالبشر ولم يعد له من قول يردده سوى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ﴾ .

٣٠ فضة

ولما كان الصباح تشاور جميع
رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على
يسوع حتى يقتلوه فاوثقوه ومضوا
به ودفعوه الى بيلاطس البنطى
الوالى .
حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه
انه قد دين ندم ورد الثلاثين من
الفضة الى رؤساء الكهنة والشيوخ
قائلا قد أخطأت اذ سلمت دما بريئا .
فقالوا له ماذا علينا أنت ابصر
فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف ثم
مضى وخنق نفسه .

انجيل متى

وقفت أتأمل الصورتين وأنا مشدوه مأخوذ . وقلت لصاحبى الفنان
انهما أعجوبة .. انهما معجزة ..

كانت الصورتان للعذراء ويهوذا ..

وعجبت فى نفسى كيف استطاع صاحبى أن يبرز تلك المعانى فيجعلها شيئا ناطقا حيا .. ونظرت الى العذراء فوجدت الصورة تنطلق بمزيج من الكبرياء المتواضعة والايمان العميق .. وخيل الى أننى لست أمام صورة . بل أمام العذراء نفسها .

ونظرت الى يهوذا .. فراعنى منه ظلال داكنة عميقة يتجسد فيها الطمع والبخل وراعنى من عينيه احساس بوزر أنقض ظهره وبارقة يشع منها ندم عميق ولهفة الى التوبة والاعتراف بالجرم .. والى ازالة تلك الحثالة التى رسبت فى قرارة النفس .. ومحو ذلك الصدأ الذى شمل الروح فى حلكة معتمة .

وشددت على يد صاحبى مهنئا وطاف بذهنى كيف حاولت أن أسخر منه عندما أنبأنى أنه سيتقدم الى المعرض بصورتى العذراء ويهوذا وكيف حاولت أن أنهيه عن عزمه ولا سيما عندما أعياه البحث عن نموذج ليهوذا .

وتذكرت وقتذاك أن أول صورة عرضها منذ عشرات السنين كانت تمثل المسيح وهو صبى .. وقد نالت الجائزة الأولى .. وكانت هى السبب فى شهرته وذيوع صيته .

وغادرنا المعرض وسألت صاحبى كيف عثر على نموذج ليهوذا ورأيته يطرق برأسه وقد شرد منه الذهن . ثم أنبأنى أن لذلك قصة عجيبة وحاولت أن أعرفها منه فلاذ بالصمت .

وافترقنا بعد ذلك ومرت الأيام والشهور . وكدت أنسى ما كان من أمر صاحبى حتى حمل الى البريد الرسالة التالية :

عزيزى :

يخيل الى أنى أستطيع الآن أن أرضى لهفتك على معرفة شىء طالما

تقت الى استجلائه وأن أشبع رغبتك فى سماع قصة طال شوقك الى سماعها .

لست أظنك الا ذاكرا كيف حاولت أن تنتزع منى سر صورتى الأخيرتين اللتين تمثلان العذراء ويهوذا ..

وكيف ألححت على بعد أن خرجنا من المعرض الأخير الذى عرضتهما فيه وفازتا بالجائزة الأولى ، فى أن أفضى اليك بقصة النموذجين اللذين نقلت عنهما الصورتين ..

فلقد كنت تعلم منى أن لهما قصة .. وقصة عجيبة .

لقد تهربت منك وقتذاك .. ولم أستطع أن أرض فضولك .. اذ لم أكن فى حل من الحديث .. ولست أشك فى أن تهربى منك وقتذاك قد ساءك .. فأنا أعلم أنك مصاب بحب الاستطلاع .. فهل تسمح لى الآن أن أكفر عن اساءتى وأقص عليك القصة بعد أن أضحيت فى حل من الحديث .. وبعد أن أضحيت واثقا من أن حديثى لن يضير أحدا .

هل تذكر عندما أخبرتك أننى سأدخل مسابقة المعرض بصورتين هما صورتا العذراء ويهوذا .

وكيف سخرت منى وقتذاك ونصحتنى أن أدع تلك الصور الدينية ..

فقد سبقنى اليها أساطين الرسم وأنى مهما فعلت فلن آتى بما لم يستطعه الأوائل . وقلت أنه خير لى أن أتقدم بشىء حديث مبتكر .

ولكنى ضربت بنصائحك عرض الحائط وأصررت على رأيى وبدأت البحث عن نموذجين أنقل عنهما ولم يكن من العسير على أن أجد نموذجا للعذراء ولو أنه لم يرضنى ارضاء تاما .

ولكن المشكلة الكبرى كانت فى الحصول على نموذج ليهوذا . ولم تكن

الصعوبة كائنة فى أن أجد النموذج الصالح .. بل كانت المسألة أعوص من ذلك .. فأنت تعلم انى قد تعودت دائما أن أفهم الأشخاص الذين أتخذهم نماذجا ، أية صورة أنوى أن أرسمها لهم وأية تعابير يهمنى أن أوضحها منهم .. وأى نوع من أنواع النماذج أريد أن أجعلهم ..

فالمرأة التى اتخذها نموذجا لعاهرة أفهمها جيدا أننى سأرسم عنها عاهرة .. وانى سأوضح فيها تعابير العهر والفجور .

ولقد كان هذا هو ما جعل الحصول على نموذج ليهوذا أمرا عسيرا .. فما من انسان - بالغا ما بلغ من السوء والحطة والدناءة - قد رضى أن يكون أنموذجا ليهوذا بعد أن شرحت له من يكون يهوذا ..

ولا شك أنك تذكر دهشتك وقتذاك عندما أنبأتك بهذا .. وتذكر سؤالك اياى :

- ماذا يمنعهم من أن يكونوا نموذجا ليهوذا أو لغيره ... ماداموا سيأخذون أجرهم فى النهاية .

وتذكر اجابتى لك :

- هذا هو ما فعله يهوذا أيضا .. لقد أخذ أجره فى النهاية .. ولكنى مع ذلك لم أجد حتى من حثالة البشر من رضى أن يكونه .

ومرت الأيام وأنا لا أجد النموذج وكلما ازداد اقتراب الموعد المحدد لاقامة العرض ازداد بى الضيق واشتدت حيرتى .. حتى أتت بى الصدفة العجيبة فى طريق النموذج المطلوب .. أو على الأصح ألقت به فى طريقى .

رأيته أول مرة مع سواه من المسجونين وقد حشدوا فى احدى اللوريات فى طريقهم الى السجن .

وكانت اللحظات الخاطفة التى لمحته فيها .. والتى التقى فيها بصره

ببصرى كافية لأن أجزم بأنه ضالتى المنشودة .

لم يصعب على العثور عليه بعد ذلك واستطعت بواسطة أولى الأمر أن أحصل على اذن للقائه .. وأن يسهلوا لى مهمة اتخاذه نموذجا أنقل عنه صورتى .

وذهبت اليه فى حجرته الرطبة المظلمة .. بعد أن قررت أن أنتقل أنا اليه .. فقد تخيلت أن جو الحجرة الموحش الكئيب الذي تفوح منه عفونه الجريمة سيكون أكثر الأجواء ملاءمة للصورة .. وأن غياهب السجن التى يثقلها ضباب الذنوب ستكون خير عون لى على الاجادة والاتقان .

ودفع الحارس الباب فسمعت له صريرا موحشا ونفذت الى الحجرة الضيقة واستطعت أن أميز الرجل على ضوء تلك الخيوط التى تسللت من النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية .

وأخذت أتأمل وجهه الضامر وعينيه ..
والتقى بصرنا فأصابتنى اذ ذاك رجفة .

لقد أدهشنى من الرجل .. أكثر من أى شىء آخر .. بارقة تشع من عينيه المذنبتين . بارقة تحاول أن تبدد ظلمات الذنوب التى أثقلته .. ورغبة فى التكفير والتوبة والاستغفار والندم .

وأفهمه الحارس ما هو مطلوب منه .. فرفع الرجل رأسه الى فى شىء من الدهشة ولم يحرك ساكنا .. فألقيت عليه التحية فى رفق وأدب .

وتركنا الحارس وأخذت أجاذبه أطراف الحديث متوددا ... حتى أفهمه ما أنوى أن أتخذه نموذجا له .. وتطرق بنا الحديث الى أن أسأله عما قاده الى السجن .. فأفضى الى بقصته فى اقتضاب .

هل تدرى ماذا كانت قصته ؟ أى حظ هذا الذى دفع به الى ؟

لقد قال لى الرجل انه متهم فى قضية قتل ..
وأن المجنى عليه كان أحد تجار الأوانى الفضية .

وأكد لى أنه لم يشترك مع اللصوص فى عملية القتل .. ولكن الذى زج به فى التهمة هو تعدد سوابقه فى سرقة الفضيات .

فلقد كان به تحرق دائم الى الفضة . ولم يكن يتورع فى سبيل الحصول عليها عن أن يسلك أى الطرق ، سواء كانت شريفة أم غير شريفة .

وكان الحصول على الفضة هو العامل الأول الذى يتحكم فى حياته .

تصور ياصاحبى أن هذه هى قتصه !
تصور دهشتى وقتذاك وأنا أسمعها منه !

أنا الذى كنت أبحث عن نموذج ليهوذا .. هل أستطيع أن أجد نموذجا خيرا من هذا ؟

رجل مصاب بجنون الفضة .. رجل تحكمت الفضة فيه .. فهوت به الى بئس القرار .

ونظرت اليه برهة .. وبدأت أخبره عما أود أن أتخذه نموذجا له .. وقصصت عليه قصة يهوذا والمسيح .. وكيف باعه بثلاثين من الفضة .. ثم وخزه الندم فرد الفضة لأصحابها وخنق نفسه .

ورأيت الرجل يحملق فى بشدة فاغرا من الدهشة فاه ..
ثم أطرق برأسه وخيل لى أننى أبصر فى عينيه دمعة تترقرق .

وتملكنى العطف عليه والرثاء له .. وكرهتُ أن أكون سبب ايلام الرجل .. وأن أستغل فرصة كونه سجينا فأجبره على أن يفعل ما لا يود فعله .

ووجدت أن خير ما أريح به ضميرى هو أن أترك له الخيار فى أن

يجلس أمامى أو لا يجلس .

وقلت له :

لا أريد أن أكرهك على شيء فلا شك أن لك مطلق الحرية فى أن ترضى أن أتخذ منك النموذج الذى أريده . لقد رفض الكثيرون غيرك من قبل .. فلن ألومك اذا ما رفضت .

ونظر الى الرجل نظرة طويلة ثم هز رأسه بشدة قائلا :

- ابدأ ياسيدى أبدأ .. انى سأجلس أمامك .. انى أرغب فى ذلك ..

هذه فرصة أذل بها نفسى وأهبط الى أسفل القرار .. حتى أستطيع بعد ذلك أن دفع بها الى أعلى القمة .. هذه فرصة أطهر فيها روحي حتى تتخلص من أدرانها وشوائبها .

ثم صمت الرجل برهة استغرق خلالها فى تفكير عميق حتى قال وكأنه يحدث نفسه :

- ثم هناك أمر آخر .. أمر لاشك قد أتاحته الظروف لى .. اذ يخيل لى أنها قد آذنت بأن تضع خاتمة لهذه اللعنة .

أجل هذه الفرصة التى ألقى عن نفسى فيها ما أثقلها وحطمها .

ولم أفهم ما يعنى الرجل بقوله .. ولم أرد أن أستوضحه خشية أن أثير فى نفسه ذكريات مريرة محزنة .

وأجلسته فى الوضع الذى أريده وفتحت الحقيبة وأخرجت منها بعض الأدوات .. وبدأت أرسم له تخطيطا .

وانهمكت فى الرسم .. وخيل الى أن الرجل متمرن على الجلوس أمام الرسامين فقد كان من خير النماذج التى أجلستها أمامى .. اذ لم ينحرف عن جلسته أو يحرك جسده طوال الساعتين اللتين استغرقتهما فى رسمه .

وكان أهم ما يسترعى اهتمامى فى الرجل عينيه .. فقد ركزت فى رسمهما كل جهدى .. اذ كنت ألمح فيهما وراء ذلك الاحساس بالجرم واليأس الظاهر لمحة عزم وبارقة أمل ، كنت ألمح فى عينيه وراء تلك المذلة والانهيار شيئا لا يعبر عنه أكثر من قوله « حتى أستطيع بعد ذلك أن أدفع بها الى أعلا القمة ، هذه فرصة أطهر فيها روحى حتى تتخلص من أدرانها وشوائبها » .

أجل لقد كان ذلك هو ما أستطيع أن ألمحه وراء أفق نفسه ..

وكان ذلك هو ما حاولت جهدى أن أبرزه - وعندما انتهيت من الرسم .. أحسست أنى قد نجحت وانى استطعت كذلك أن أجسد ذلك الشيء الخفى الذى لمحته في قرارة نفسه وأيقنت كذلك أنى سأنجح فى نقله من التخطيط الى الصورة .

ووضعت التخطيط جانبا وأمرته بأن يجلس على راحته شاكرا له فضله .. ثم وضعت يدى فى جيبى وأخرجت بضعة ورقات مالية وحاولت أن أعطيها اياه ولكنه أعادها الى قائلا فى شيء من المرارة .

لا ياسيدى استبقها لنفسك .

وأصابتنى دهشة وحيرة وقلت له :

- هذا أجرك فهو مال حلال لك .. لقد تعودت دائما أن أنقد النماذج التى تجلس أمامى فماذا يمنعك من أن تأخذ الأجر .

- لا ياسيدى اعفنى من الأجر .. أرجوك .. انى لا أود أن آخذ أجرا على مافعلت .

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

- ولكن هناك أمرا بسيطا أسألك اياه . وبودى لو تفضلت بفعله من أجلى .

وهنا أدركت أن الرجل ينوى أن يطلب منى شيئا يعوض به الأجر ، شيئا لاشك سيعتبره أكثر من الأجر ، وخشيت أن يبالغ فى مطلبه أو يطلب أمرا تحرمه قوانين السجين .

وقلت له فى شيء من التردد :

- لاشك انى فاعل لك ما تريد ما دام فى طاقتى .

- هو فى طاقتك ياسيدى ، أريد منك أن تذهب الى زوجتى ، انها هى التى وهبتنى القوة لأتماسك وأتجلد . وهى التى منحتنى الارادة لأبدأ من جديد .

انها تعيش على مقربة من السجن فلقد استأجرت دار فى القرية المجاورة حتى تكون بجوارى .

- وماذا تريد أن تبلغها .

- لو تفضلت ياسيدى بلقائها وقلت لها كل ما حدث بيننا ، وطلبت منها أن تعطيك الكيس الصغير لكى توصله الى ، فلاشك أنك تكون قد أسديت لى معروفا لن أنساه ، هل تستطيع أن تفعل هذا من أجلى ؟

وترددت برهة فقد خشيت أن يكون فى الكيس شيء يحرم دخوله الى السجن ، وبدا لى أن الرجل قرأ ما جال بخاطرى فقد قال مؤكدا .

- ليس بالكيس شيء يخشى منه . أقسم لك ياسيدى .

واستطعت أن أميز فى صوت الرجل رنة صدق واخلاص فلم أتردد فى أن أقول له :

- سأفعل ما تريد ، سأذهب الى زوجتك وأنبئها بكل ما حدث وأحضر لك منها الكيس .

وشد الرجل على يدى شاكرا وتركته وانصرفت .

غادرت السجن وكان الوقت قبيل الغسق ولم يبق فى الأفق الا بقايا شفق

داكن الحمرة ، وفلول النهار تترنح أمام طلائع الليل المعتمة ، ولم يصعب على أن أعثر على الدار التى وصفها لى الرجل وبعد لحظات كنت أطرق الباب ، وسمعت من الداخل صوتا يجيبنى فى ورقة ، ثم فتح الباب ووجدت نفسى أمام امرأة اتشحت بمئزر أسود ونظرت الى نظرة فاحصة ثم سألتنى :

- نعم ياسيدى .

وحييتها فى رفق ... مساء الخير ياسيدتى .

مساء الخير ، أأستطيع أن أؤدى لك خدمة .

انى قادم من عند زوجك .

وأخذت المرأة من قولى ورددته فى دهشة :

- قادم من عند زوجى ؟ تفضل ياسيدى .

ثم أفسحت لى الطريق وقادتنى الى الداخل .

وجلست على مقعد خشبى وجلست أمامها على احدى الأرائك وساد السكون برهة ثم رأيتها قد قامت وبدأت تتشاغل باشعال المصباح الغازى ، فلقد أخذت الظلمة تشتد ثم عادت الى مقعدها .

وكنت أول من بدأ الحديث فقصصت عليها فى اسهاب ما دفعنى الى لقاء زوجها وما حدث بينى وبينه .

وأخذت أرقبها وهى تستمع الى ، ووجدت فى وجهها نوعا من الجمال العجيب ، نوعا هادئا ساكنا ، يبعث فى نفسك الطمأنينة جمال لا يبهرك منه ضياء ولا بريق ، ولا تؤخذ منه لأول وهلة ، ولكنه يسحرك كلما أطلت النظر اليه ، وتحس منه أمنا وسلاما ، تشعر من النظر اليه براحة كالتى يحسها الانسان عندما يستلقى فى روضة غناء فى يوم صافى الأديم هادىء النسمات .

وانتهيت من الحديث ورفعت الى عينيها الصافيتين وسألتنى فى شىء من اللهفة :

- كيف وجدته ياسيدى ؟ هل يبدو فى تحسن .. أعنى نفسه وروحه .. هل تسيران فى طريق الشفاء .

وأجبتها على الفور :

- بالتأكيد ياسيدتى . انى أستطيع أن أجزم من حديثه ومن مظهره .. انه قد بدأ فعلا فى الصعود الى أعلى . وأن روحه قد أخذت تتخلص من شوائبها وأدرانها وان نفسه قد أخذ يزول عنها الصدأ .

وبدأت المرأة تتحدث بدورها لتقص على قصته قائلة :

ان أمره عجيب - لولا هذا المرض النفسانى الذى به لكان خير الرجال ولكان له شأن آخر غير الذى صار اليه ، انى أذكر كيف التقينا منذ بضع سنوات .. وكيف شدنا الحب بوثاقه .. ووجد كل منا فى صاحبه أقصى ما يريد .

ثم تزوجنا وبدأنا حياة رغدة هانئة .. وكنت أرى المستقبل أمامه زاهرا متفتحا وكان كل ما حولنا يبعث على الرضا ويوحى بالأمل .. حتى بدأت أكتشف ذلك المرض الذى به ، وهو لهفته الى الفضة . وتحرقه الى جمعها ، وحرصه عليها حرص بخيل يتأجج فى جوفه الجشع والطمع .

ولم أكن أجد فى الأمر غضاضة عندما كانت لهفته لا تتعدى جمع كل ما تصل اليه يده من الفضة ومحاولته تخزينها .. ولكننى بدأت أحس قلقا عندما وجدته ذات مرة يغافل بائعا فى أحد الحوانيت فيسرق من كيسه ما وصلت اليه يده من القطع الفضية .

ولم تذق عينى النوم فى تلك الليلة فقد قضيتها باكية مسهدة وانتهى به الأمر الى أن أقسم لى أنها ستكون المرة الأخيرة التى يفعل فيها مثل تلك الفعلة .

وكنت وقتذاك فى حالة لا أحسد عليها ، فقد أضنانى التفكير دون أن

أهتدى الى حل لما أنا فيه .

لتتخيل ياسيدى حال زوجة تحب زوجها . وترى فيه مثلا أعلا ونموذجا بين الرجال ثم تراه ينزلق الى مثل تلك الدنايا التى لا موجب لها ولا سبب .. فنحن بحمد الله فى غير حاجة الى تلك السرقات المخزية التى يرتكبها .. وبدأت أتصور ماذا يكون حالنا لو ضبط مرة متلبسا باحدى تلك الفضائح المشينة .. أية مصيبة وأى ضياع لمستقبله ؟

ولم أشك فى أن ما به مرض نفسانى ، قد يكون مرجعه الى عقدة نفسيه أصابته فى طفولته أو فى صباه ، ولكن كيف السبيل الى علاجه كيف أجرؤ أن أقول للناس أن زوجى مصاب بداء سرقة الفضة ، وأنه قد ارتكب عدة سرقات تافهة حقيرة .

وأخيرا حدث ما كنت أخشاه فقد افتضح أمره وضبط عدة مرات وفقد سمعته ومركزه ، وتدهور حالنا وبذلت جهد الجبابرة لانقاذه مما به ، حتى حدثت أخيرا تلك الكارثة التى قتل فيها تاجر الأوانى الفضية فكانت القاضية علينا .

وبالطبع ياسيدى لم يكن له أى دخل فى عملية القتل .. ولا كان يخطر على باله أنها ستنتهى بمثل ما انتهت عليه .. فهو لا يمكن أن يفكر فى ازهاق روح حشرة ، بلة انسان مثله .

ويخيل الى أن هذه الحادثة رغم فظاعتها ورغم ما حل به من جرائها قد أفادته كل الفائدة .. فقد أصيب منها بصدمة عنيفة .. روعته وهزت مشاعره وأحدثت فى نفسه تحولا مفاجئا وأصابته بنفور من الشىء الذى طالما تلهف عليه .. وشفيت نفسه من الداء الذى أزمن بها .

ألست ترى ذلك ياسيدى .

ألم تر أن نفسه على وشك الشفاء ؟

ورأيت فى سؤالها شبه رجاء واستعطاف فقلت لها فى ثقة :

– بالتأكيد ياسيدتى ، انه سيخرج اليك رجلا آخر . سيخرج اليك نفسا سليمة وروحا طاهرة وتستيطعان أن تبدءا حياة جديدة مرة ثانية ، فالمستقبل مازال زاهرا متفتحا .

وفعل قولى فى نفسها فعل السحر ووجدت تعابير وجهها قد نمت عن شىء جديد وشع من عينيها بريق أصابنى منه رجفة .

وأخذت تحدثنى عن أملها فى المستقبل وعن أحلامها وأمانيها وبهت لحظة ، ثم أقبلت على حقيبتى أفتحها وأخرج منها ورق الرسم وبدأت أرسم لها تخطيطا .

وانهمكت المرأة فى حديثها الملىء بالثقة والايمان . ايمانها بالله وبالمستقبل وبزوجها وبنفسها وانهمكت فى الرسم بلهفة جنونية ، لقد كنت أرغب فى أن أجد ذلك الايمان الذى شع من عينيها وذلك الاخلاص الذى برق فى وجهها والثقة التى ملأت جوانحها .

وأخيرا كفت المرأة عن الحديث وكففت عن الرسم ..
لقد رسمت ما أبغى ..
لقد حصلت على ما كنت أتلهف عليه .

ولا شك أنك تذكر صورتها فلقد رأيتها وأبديت اعجابك بها هل تذكر ؟

لقد كانت صورة العذراء .

وعندما صمتت ، مددت يدى اليها بالصورة التى رسمتها وابتسمت وعلى وجهها احمرار خجل ، وأنبأتنى أن الصورة فيها كثير من التملق ، وانتى أطريتها أكثر من اللازم .

وصمتت برهة ثم سألتنى فى حياء :

- هل يمكن أن نريها له ؟
- بالتأكيد ، لا شك أنى فاعل .

ووضعت الصورة فى الحقيبة ثم نهضت من مقعدى مادا يدى لمصافحتها .

وقلت أذكرها بما أتيت من أجله .
- لا تنسى الكيس ياسيدتى الذى يطلبه زوجك .

وهزت المرأة رأسها بالموافقة ثم اختفت بضع لحظات وعادت تحمل كيسا جلديا صغيرا ودفعت به الى قائلة :

- عندما تعطيه له سيشرح لك كل شىء عنه .
لا تسخر منه ياسيدى اذا ما رأيت فيما يقول حديثا صبيانيا .
هل تعدنى ياسيدى ؟

- لا لزوم للوعد فانى ما سخرت من شىء فى هذه الحياة قط .
فقد نجد نحن أنفسنا فى نفس الموضع الذى سخرنا منه ، فليس علينا الا أن ندعو الله ألا يدخلنا تجربة .

- أشكرك ياسيدى .. انه يريد أن يتخلص مما يظنه لعنة حلت به أنه يريد أن يلقى عن نفسه ما أثقلها وأنهكها .

ووجدتنى أسمع للمرة الثانية نفس ما سمعته من الرجل عن التخلص من لعنة وعن شىء أثقل نفسه وأنهكها ولم أجب بشىء فما استطعت أن أفهم بعد .

وغادرت المرأة وسلكت سبيلى مرة ثانية الى السجن ولم أجد مشقة فى الدخول الى الرجل .

ووصل الى أذنى صرير الباب مرة أخرى .. ووجدت الرجل ما زال جالسا حيث تركته .

وعندما أبصرنى وثب من مكانه وتقدم الى بلهفة شديدة وسألنى فى حدة .

- هل أحضرته ياسيدى .
وأشرت برأسى - نعم - ثم مددت يدى اليه بالكيس .

ووضع الرجل الكيس على حافة الفراش ونظر الى مطرقا باستحياء ثم قال بصوت هامس :

- هل لم تتذكرنى بعد ياسيدى ؟

هل تظن أن هذه هى المرة الأولى التى أجلس أمامك فيها لترسمنى ؟
ورفعت حاجبى فى دهشة بالغة وهززت رأسى متسائلا عما يعنيه وعاد هو يقول :

هل تذكر صبيا جلس أمامك منذ عشرات السنين لتتخذ منه نموذجا للسيد المسيح ؟

- بالطبع أتذكر ، فلقد كانت أول صورة رفعتنى الى أوج الشهرة ولكن ، هل تعرف الصبى ؟

ثم ترددت برهة وبدأت أحملق فيه بشدة وقلت مترددا :
- لا أظنك تعنى أن هذا الصبى هو ...
- أنا ! أجل ياسيدى ، هذا هو ما أعنيه بالضبط ، لقد اتخذت منى فى صباى نموذجا للمسيح ، وجعلت اليوم منى نموذجا ليهوذا .

ثم ضحك ضحكة مريرة أصابتنى برجفة .

وحدثت نفسي في صوت هامس :

- ولكن هذا غير معقول .

- أجل انه يبدو فعلا غير معقول .

ثم صمت برهة وأردف :

- هل تذكر عندما أعطيتني أجرى وقتذاك أورقا مالية فسألتك أن تستبدله بفضة .

- لاشك انى أنكر ، وأنكر مبلغ فرحتك بالنقود الفضية لقد كانت فرحة جنونية .

- أجل ياسيدى ، فقبل أن تعطيها لى ببضع ساعات كان أبى قد ضربنى ضربا مبرحا لأنى حاولت أن آخذ من درجه قطعة فضية أشترى بها لعبة كنت أتلهف عليها ، وزادنى الضرب والحرمان لهفة على لهفة .

وكنت أتحرق شوقا الى القطعة الفضية وأحلم اننى قد عثرت على كنز ملىء بالفضة ، وبعد بضع ساعات حققت أنت لى الحلم وهيأت لى ذلك الكنز من الفضة .

ومرت الأيام بعد ذلك ، فاذا بى أحس بجشع دائم الى الفضة ولهفة على الحصول عليها ، وفرحة فى تجميعها وتخزينها ، واشتد بى الأمر ، وتحكم فى نفسى ذلك الشعور ، وتسلط على ارادتى وحياتى وأصبحت أشبه بمدمن المخدرات . وأظلمت حياتى وانتهى بى الأمر الى حيث تجدنى الآن .

وأحسست برعدة فى بدنى وقلت لنفسى فى صوت هامس :

- يا للفتى المسكين ، هل يمكن أن أكون أنا السبب فى كل ما حدث له .

- لا ، لا ، ياسيدى ما ذنبك أنت ، الذنب أولا ذنب ذلك الذى أخذنى بالشدة أول الأمر ، وأذاقنى الحرمان بلا سبب ، ثم ذنب هذه النفس الضعيفة

التى لم تستطع أن تقاوم العلة .

هل يدهشك ياسيدى اذا وجدتنى قد احتفظت بنقودك كما هى ؟

وانى اتخذت منها تعويذة ، أجلب بواسطتها غيرها من الفضة ، انها مازالت معى كما هى ، لم أصرف منها مليما واحدا ، وكم أتمنى لو أردها لك - اذا لم تجد فى هذا ما يسوءك - حتى أرفع عن نفسى اللعنة التى حلت بى .

وأمسك الرجل بالكيس الفضى وفك رباطه وألقى ما فيه فوق الفراش ونظرت الى الرجل فوجدت عينيه تبرقان بطبقة من الدمع وأحسست بأن نفسه غمرها شعور بالراحة والاطمئنان ، والتفكير عن الخطيئة ، ورأيت بارقة الايمان التى كنت ألمحها بعيدة فى أقصى أفاق نفسه قد أشرقت حتى أضاءت نفسه .

وأخذت أجمع النقود الملقاة فى الفراش .

وأعدت الى جيبى ، ما أعطيته للصبى منذ عشرات السنين .

ثلاثين من الفضة .

أعدها يا رب

﴿ وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قديــــــــــر ﴾ .

« قرآن كريم »

دقت الساعة الثانية عشرة . وأنصتت العجوز الى الدقات تعدها واحدة واحدة ، ثم أرسلت من صدرها زفرة حارة وأغمضت عينيها .

لم تنم العجوز فقد استعصى عليها النوم وأرقها الحزن ، وأخذت تهز رأسها متململة . وانسابت من جفنيها المطبقين دمعتان جرتا على وجهها المغضن واستقرتا على الوسادة .

كان أكثر ما يحزنها هو احساسها بالعجز . فقد كانت تتمنى لو تستطيع أن تفعل شيئا ، أى شىء مهما بلغ من تفاهته يخفف من لوعتها ويهيىء لها بعض السلوان .

لو أنها كانت تستطيع أن تغدو وتروح لتقضى بعض الحوائج أو تناول هذا الدواء أو ذاك . وتضع الكمادات وترفعها . أو لو أنها كانت تستطيع حتى أن تجلس بجوار المريضة العزيزة لتسرد عليها الأقاصيص والنوادر ، فتسليها

أعدها يارب

﴿ وان يمسسك الله بضر فلا كاشف
له الا هو وان يمسسك بخير فهو على
كل شىء قديـــــــــر ﴾ .
« قرآن كريم »

دقت الساعة الثانية عشرة . وأنصتت العجوز الى الدقات تعدها واحدة واحدة ، ثم أرسلت من صدرها زفرة حارة وأغمضت عينيها .

لم تنم العجوز فقد استعصى عليها النوم وأرقها الحزن ، وأخذت تهز رأسها متململة . وانسابت من جفنيها المطبقين دمعتان جرتا على وجهها المغضن واستقرتا على الوسادة .

كان أكثر ما يحزنها هو احساسها بالعجز . فقد كانت تتمنى لو تستطيع أن تفعل شيئا ، أى شىء مهما بلغ من تفاهته يخفف من لوعتها ويهيىء لها بعض السلوان .

لو أنها كانت تستطيع أن تغدو وتروح لتقضى بعض الحوائج أو تناول هذا الدواء أو ذاك . وتضع الكمادات وترفعها . أو لو أنها كانت تستطيع حتى أن تجلس بجوار المريضة العزيزة لتسرد عليها الأقاصيص والنوادر ، فتسليها

وتضحكها وتدفع عنها بعض آلامها .

لو أنها كانت تستطيع أن تفعل شيئا من هذا لكانت بلا شك أحسن حالا ، ولكان المصاب - على فداحته - يمكن احتماله .

اما أن ترقد هكذا فى فراشها لا تملك الا الرأس المتململة ، والدمع المنساب . والزفره تلو الزفره . فقد كان هذا شيئا لا يطاق .

وسمعت وقع أقدام تقترب من حجرتها ثم أضيء النور وأبصرت أم عبده الخادم تفتح أحد الدواليب لتخرج منها بعض الملاءات البيضاء ، وعندما أوشكت أن تهم بالخروج دون أن تلقى اليها بكلمة سألتها فى صوت خافت :

- كيف الحال ؟

وكأنما قد فوجئت المرأة بسؤال العجوز . فقد أصابتها رجفة بادية وهتفت مجيبة :

- أما زلت مستيقظة ياسيدتى ؟ ظننتك نائمة .
- كيف حال عفت ؟

- كما هى . لقد استدعينا الدكتور عبد العزيز فأشار بوجوب عمل كونسلتو . وقد حضر الأطباء وتشاوروا فى أمرها ثم انصرفوا بعد أن قالوا أنهم فعلوا كل ما يستطيعون وأن على الله الباقى .

رفعت العجوز يدها الى السماء داعية بصوت ملؤه الحرارة .

ربنا لا يرينى فيها مكروها .

وأطفأت الخادم النور . وغادرت الغرفة تاركة العجوز غارقة فى ظلمات أحزانها .

وشرد ذهن العجوز فانطلق الى حجرة المريضة العزيزة الجميلة ،

وتخيلتها مسجاة على فراشها مكروبة الصدر متلاحقة الأنفاس قد الهبتها الحمى وأنهكها المرض وبجوارها رقد طفلها الصغير لا يتجاوز عمره أياما معدودات .

عجبا للزمن ، ما أسرع مروره أهكذا أضحت الحفيدة الصغيرة أما ، وهى مازالت تذكرها بالأمس تحبو على أربع ؟

لقد جمعت الدار أربعة أجيال وانها لسعيدة بذلك . فما كانت تلقى فى حياتها حفيدها الرابع .

تتمنى أقصى من أن تعيش لترى عفت قد أضحت زوجة وأما . وأن يحقق القدر أمنيتها . ولكن بأى ثمن ؟

ان الثمن لو أخذه القدر حقا لكان فادحا ، أفدح من أن يحتمل .

لقد وضعت عفت ولدا ، حملوه اليها عقب ولادته مباشرة فبعث فيها منظره فرحة شديدة . اذ كان أول ولد تنجبه العائلة . وسألتهم أن يسموه محمدا كجده الكبير المرحوم زوجها .

ولم تطل فرحتها ، اذ ما لبثت أن أبصرت فى الوجوه تجهما . وأحست فى الدار حركة قلق . ثم علمت أن حرارة الأم الصغيرة قد أرتفعت وأنها محمومة متعبة .

وروعها النبأ ، وأحست كان مطرقة قد هوت على رأسها فدكتها دكا ، ووجدت نفسها تتساءل كالمحمومة :

– أترى القدر ينوى أن يكرر ضربته فيصيبها فى حفيدتها كما أصابها فى ابنتها .

أى ذنب جنته لكى ينزل بها القدر ذلك القصاص العجيب ؟

فيحكم عليها بالحياة حتى تشاهد بعينيها مصرع أحب الناس اليها !

لا لا . ان القدر لا يجسر أن يعيد فعلته ، ليته يؤخذها هى ، فما عاد بها رغبة فى الحياة . وما أضحى لها نفع ولا فائدة ، ان من العجب أن يترك عودها الذابل اليابس ليقطف هذه الزهرة النظرة اليانعة .

لا لا ، هذا ليس معقولا .

ولكن ألم يفعلها القدر من قبل ؟ ألم يأخذ ابنتها بنفس الطريقة وفى نفس الظروف !

أجل أنها تذكر اليوم المشئوم تماما ، كان الوقت صيفا ، فى مثل هذا الوقت ، أجل ، أجل انه كان شهر بؤونه ، والجو مسموم خانق والقيظ على أشده ، والنوافذ قد أغلقت اتقاء لهبوب الشرد اللافح ، والدار قد خيمت عليها ظلمة ورأن عليها صمت لا يشوبه الا وقع أقدام تتسلل هنا وهناك ، وهمسات تنساب من الشفاء كالفحيح ، والأطباء قد احتشدوا فى حجرة المريضة ، الحجرة المطلة على الناحية البحرية (نفس الحجرة التى ترقد فيها عفت الآن) وهى جالسة فى حجرتها هذه ترتجف كريشة فى مهب الريح وقد أخفت وجهها بين كفيها وانكمشت فوق الأريكة كأنها كوم حطام ، وبجوارها وقف زوجها يحاول أن يزيل مخاوفها ويبعث فيها الطمأنينة وهو أشد منها خوفا وأكثر انهيارا ، لا يكاد يتمتم الا بجملة واحدة تتواتر على شفتيه :

– سليمة باذن الله ، سليمة ان شاء الله ، لطفك يارب ، رحمتك يارب .

ومن الصالة كان يصل اليها وقع أقدام زوج أبنتها ابراهيم وقد أخذ يغدو ويروح فى قلق شديد وهو يهتف بحراره داعيا من قبله بين آونة وأخرى « يارب » .

وأخيرا غادر الأطباء الغرفة وتحركوا مغادرين الدار وفى أعقابهم سار

ابراهيم ، وتحاملت هى على قدميها حتى حجرة ابنتها وجلست فى سكون على حافة الفراش محاولة التجلد والتماسك .

كانت تحس بقلبها يتفتت وهى ترى ابنتها وفلذة كبدها الشابة الجميلة القوية الصحيحة مسجاة على الفراش غائبة عن وعيها وقد انفرجت شفتاها وخرجت أنفاسها سريعة متلاحقة كأنها تعدو فى سباق وعلى مقربة منها استقر فراش صغير كانت ترقد فيه المولودة الجديدة وقد راحت فى سبات عميق .

وعاد ابراهيم بعد أن شيع الأطباء وقد بدأ مطرق الرأس مطاطىء الهامة . وأقبل زوجها عليه يسأله عما قال الأطباء . فهز رأسه ورفع كتفيه وأجاب فى يأس .

- لقد قالوا انهم فعلوا كل ما فى وسعهم ، وأن الباقى على الله .

ولم يصبها قوله بخيبة أو يأس ، فقد كانت تأمل فى الله كثيرا وتعتقد جازمة أنه لن يخيب رجاءها .

ومضى اليوم والسكون مخيم وأهل الدار يتحركون كالأشباح وأقبل الليل فلم تترك فراش ابنتها بل استمرت جالسة بجوارها حانية عليها تتحسس وجهها الملتهب بكفها وتدعو الله أن ينزل معجزته .

وغالبها النعاس فأسندت رأسها وهى جالسة على الوسادة ، ولم تشعر كم مر من الوقت وهى على حالتها تلك ؟ ولكنها استيقظت فجأة على نداء ابنتها وهى تهتف بها : « نينه .. نيـ . » .

وتملكتها رجفة وأجابت بصوت يذوب حنانا :

- نعم يازينب .. نعم ياحبيبتى .

أريد أن أراها .. أريد أن أرى عفت .

- حاضر ياحبيبتى .. سأحضرها لك حالا .

وكانت الطفلة ترقد فى الفراش الصغير فحملتها واقتربت منها بهدوء ووضعتها بجوارها قائلة :

- بنت أمورة ، شبهك تمام .

- نينه . أريد أن تأخذى باللك منها جيدا يانينه ، سأذهب وأنا مطمئنة لأنى سأتركها لك .

وأحست من قول ابنتها كأن يدا تعتصر قلبها ، وحاولت جهدها أن تهدىء عاصفة البكاء وتوقف سيل الدموع الذى يوشك أن ينهمر من مقلتيها ، وقالت فى لهجة واثقة مطمئنة :

- لا تقولى هذا يازينب ، انك بخير ، وستشفين وتتمتعين بابنتك وتربينها .

أنا أعلم بنفسى، قربيها منى ، دعنى أمسها بشفتى .

وكان هذا آخر ما فعلته ، لقد مست ابنتها بشفتيها ثم انطبقت شفتاها الى الأبد .

وهكذا راحت البنية العزيزة ، لقد انسابت من بين يديها وتركتهم حطاما ، لقد ذهبت أينع وأنضر ما تكون ، غير تاركة عزاء لهم سوى الطفلة الصغيرة .

وتلقت الأم حفيدتها التى هبطت الى الحياة بلا أم ، فكانت لها خير أم .

ولم تكن تملك أن تكون غير ذلك ، فقد كان حبها للطفلة حبا غير طبيعى ، اذ كانت تشعر أنها بقية حية من العزيزة الراحلة ، وكانت تذكر دائما وصية ابنتها لها وقولها لها قبل أن ترحل « سأذهب مطمئنة لأنى سأتركها لك » .

وكرست الجدة حياتها لخدمة حفيدتها ، فهى تذكرت كيف كانت تسهر

بها الليالى ، ما حاولت مرة واحدة أن توكل أمرها لخادمة ، أو لقريبة من الأقرباء .

كانت تشعر أن لحياتها قيمة من أجل الطفلة العزيزة ، كانت تكره لنفسها المرض أو العجز خشية أن لاتجد عفت من يخدمها ، أو خشية أن يهمل الخدم أمرها .

ومرت السنون ونمت الطفلة فأصبحت صبية يانعة ناضرة وكانت الجدة تحس اذا ما رأتها بالرضا والغبطة ، وتشعر أنها قامت بواجبها نحوها خير قيام .

وفى ذات يوم أصيبت العجوز بشلل أقعدها عن السير ، ووجدت نفسها فجأة قعيدة الفراش لا تملك حراكا .

وتلقت المصاب بصبر جميل وحمدت الله لانها لم تصب به عندما كانت عفت فى أشد الحاجة الى قوتها ورعايتها ، واستسلمت لقضاء الله راضية ساكنة .

ومرت بها الأيام وهى قابعة فى فراشها ، عزاؤها الوحيد حب حفيدتها لها وعطفها عليها ، كانت أحب الأوقات الى نفسها هى الأوقات التى تقضيها عفت جالسة بجوارها على الفراش مرهفة سمعها لاقاصيصها الطريفة ونوادرها المسلية ، وقد أسندت ذقنها الى كفها ورنت اليها بعينيها الصافيتين ، وأخذت تستحثها من آن لآخر جملتها التقليدية :

- وبعدين يانينية حصل ايه ؟

يا للعجب ! لقد كانت هى نفسها جملة أمها . حتى لقد كانت العجوز تشعر فى كثير من الأحيان أن الجالسة أمامها هى الابنة وليست الحفيدة .

أجل . ان الزمن ما مر وما انقضى . وان زينب مازالت طفلة ترهف

أذنيها وترنو بعينيها . انها ما وضعت وما ماتت . لانها هى هى الجالسة أمامها .

لشدة ما كان الشبه شديدا بين الاثنتين . الابنة والحفيدة . حتى لقد كانت العجوز تخططىء فى بعض الاحيان فتنادى الحفيدة باسم الابنة .

واستمرت السنون فى كرها ونضجت الصبية وأصبحت فتاة رائعة الحسن مكتملة الأنوثة . ورحل زوجها الى ربه واكتهل ابراهيم وشاب ، وبدأت هى تشعر بالوهن والاضمحلال . وهد المرض قواها فأمست كومة عظام ملقاة فى الفراش ، وأخذ يساورها الاحساس بقرب النهاية ، ولم تكن تتمنى شيئا قبل الرحيل أكثر من أن ترى حفيدتها عروسا تزف .

وفى ذات يوم أقبلت الفتاة عليها متهللة الأسارير مفترة الثغر وأنبأتها فى حياء مصطنع أنها قد خطبت .

وبعد بضع أسابيع تحققت أمنية العجوز ووقفت أمامها البنية الجميلة تختال فى ثوب الزفاف رشيقة أنيقة مشرقة الوجه ممشوقة القد ، ووراءها عريسها يبتسم فى هناء وغبطة وقد بدأ حلو التقاطيع فارع القوام ، وأقبلا عليها يقبلان جبينها ويلتقيان تهنئتها ودعواتها .

وتم الزواج فى هدوء وعاش العروسان فى الدار ، ولم تشغل عفت بزوجها عن جدتها بل استمرت فى رعايتها لها وعنايتها بها ، وكانت كثيرا ما تقضى الساعات الطويلة فى مسامرتها وتسليتها .

ومر العام الأول من الزواج ، وحملت عفت وحان موعد الوضع ، ورقدت الطفلة العزيزة الحلوة استعدادا للولادة .

وساور العجوز وقتذاك خوف خفى حاولت جهدها أن تتخلص منه ، ولكن المشاعر كانت تضطرب فى نفسها مختلطة متناقضة . كانت تذكر

برغمها ولادة ابنتها والجو الرهيب الذى أحاط بها والخاتمة المخيفة التى انتهت اليها ، وكانت لا تكاد تغفو حتى تصحو من نومها فزعة وهى تتوهم أن الحامل الراقدة هى ابنتها وأن ما يقع الآن ما هو الا تكرار لما حدث من قبل واعادة لنفس المأساة بتفاصيلها ودقائقها .

كان أكثر ما يخيفها هو فرط التشابه بين ما حدث وما يوشك أن يحدث . نفس الظروف ونفس الأمكنة ونفس الوقت ونفس الجو . لا فارق هناك بين الواقعتين الا أنها كانت فى الأولى قوية نافعة تستطيع أن تشغل نفسها بالحركة والذهاب والاياب وتستطيع أن تجلس بجوار ابنتها فتمس جبينها بيدها أو تضمها اليها . كانت تستطيع على الأقل أن ترقب رحيل ابنتها وتسمع آخر كلماتها وتودعها الوداع الأخير ، أما الآن ، فماذا تستطيع أن تفعل سوى الرقود كالخرقة البالية ترقب السقف وتسكب الدمع وتهز الرأس فى عجز ويأس .

ألا تستطيع حتى أن تراها وأن تودعها قبل الرحيل ؟

انها بالطبع لا تملك لها نفعا . وهى أعجز من أن تقوم لها بأتفه الخدمات . ومن الجنون أن تتخيل أنها تستطيع انقاذها من الموت . فهذه أشياء لا يملك الانسان لها ردا ، الانسان الصحيح القوى ، فما بالكم بانسان مثلها عاجز محطم .

ولكنها فقط تريد أن تراها ، ليتهم يرضون بأن يحملوها الى حجرة عفت .

حقيقة ان الطبيب الذى يعودها أمرها بألا تتحرك من الفراش ولكن ألا يستطعون أن يرفعوها بالفراش .

ثم ماذا يخشى عليها الطبيب ؟ ماذا يخشى على مشلولة عاجزة وهن العظم منها ؟ أيخشى عليها من الموت ؟

قاتله الله ، ألا يعلم أن فى الموت خلاصها ، وأنها لو ماتت قبل الآن

لوفرت على نفسها مشقة مشاهدة موت حفيدتها .

ولكن لم لا تحاول هى الحركة ؟ ان المسألة تحتاج الى ارادة قوية وعزم شديد .

أجل ، أجل ، يجب أن تجرب ، ولاشك أنها ستنجب .
ان الله سيعاوننا ، فهى لا تطلب شيئا كثيرا ، انها تريد أن تودع حفيدتها قبل الرحيل .
وهكذا بدأت العجوز التجربة .

وشيئا فشيئا ، أخذت تنزلق من الفراش حتى بلغت حافته ، وفجأة فقدت توازنها وسقطت على الأرض سقطة شديدة أحست معها أن عظامها قد تحطمت .

ومرت برهة قصيرة وهى راقدة فى مكانها ككومة عظام ، ثم بدأت تتمالك قواها وتعود الى وعيها ، وأخذت تحبو ببطء على يديها وركبتيها حتى بلغت باب الحجرة وأخذت تعبر الصالة متجهة الى حجرة المريضة .

وأخيرا ، وبعد جهد شديد بلغت بابها ومدت رأسها فى الحجرة أخذت ترهف السمع وتتطلع بعينيها كأنها كلب جريح .

وأحست بطمأنينة تفعم قلبها عندما بلغ مسامعها صوت أنفاس تتردد ، لقد كانت تخشى أن تصل متأخرة ، ولكن حمدا لله أنها مازالت حية تتنفس .

واقتربت من الفراش ومدت يدها تتحسس حافته ، ثم أخذت تحاول النهوض على ساقيها حتى تقف بجوار الفراش ..

وأحست بعجز شديد كأن جسدها يشد الى الأرض بأثقال لا قبل لها برفعها ، وأخذت تنادى حفيدتها الراقدة بصوت ملؤه اللهفة والاستغاثة دون أن تسمع منها سوى أنفاس تتردد بصعوبة .

واستمرت العجوز فى ندائها المبحوح فى اصرار والحاح كأنها مصممة على أن تستعيد عفت من غيبوبتها وأن تسترجعها من الغياهب التى توشك أن تغيب وراءها .

أجل ، لابد لها أن تودعها قبل الرحيل ، لقد قطعت كل هذه المسافة لكى تسمع منها كلمة وداع ، فحرام أن تبخل بها عليها .

وتوقفت العجوز برهة عن النداء ثم رفعت وجهها الى أعلى وهتفت :

- يارب ، انى لا أطلب كثيرا ، أعدها لحظة واحدة ثم خذها ثانية .

وفجأة ارتجفت عينا المريضة وارتعش جفناها ثم فتحا ببطء وبدت من خلالها نظرة خابية لاتكاد تميز من حولها شيئا .

وعاودت العجوز نداءها الحار . فاذا بالغشاوة التى قد علت عينى المريضة تنقشع واذا بها توجه اليها بصرها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة وأجابت بصوت خافت :

- نعم يانينة ؟
- ازيك ياحبيبتى ؟
- بخير يانينة .
- ان شاء الله بخير دائما .
- لم تجلسين على الأرض ؟ انهضى واجلسى بجوارى .
- لا أستطيع ، انى مشلولة عاجزة .
- بل تستطيعين ، سأمد يدى لمعاونتك ، اعتمدى عليها .
- انك مازلت ضعيفة ، كيف يمكنك معاونتى على النهوض ؟

- أنت أيضا كنت عاجزة ؟ ولكنك استطعت أن تستعيدينى من الأغوار السحيقة ، والدياجير المعتمة التى كنت أهوى فيها ، ان القوة فى القلوب وفى

الايمان وفى العزائم وليست فى العضلات أو الأذهان ، امسكى يدى وسأعاونك على النهوض كما عاونتنى على العودة ، هيا اعتمدى على .

ومدت العجوز يدها فوضعتها فى يد المريضة ثم حاولت النهوض معتمدة عليها .

وفى هذه المرة أحست أن الأثقال قد فكت وأنها أصبحت خفيفة لا يشدها الى الأرض شيء .

وبمنتهى البساطة وجدت نفسها أخيرا واقفة على قدميها بجوار حفيدتها .

ووقف الأطباء فى الصباح يقلبون البصر فى المرأتين ، الحفيدة وقد هبطت حراراتها وعادت الى الحياة ، والعجوز ، وقد ذهب عنها الشلل بعد طول يأس .

وهز أحد الأطباء رأسه وقلب شفتيه وقال هامسا :

– كنت أومن بهذا دائما ، ان السماء مازالت بها أشياء تعجز أذهاننا عن ادراك كنهها ، ان المعجزات لم تنته بعد .

الرحلة الكبرى

﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ .

« قرآن كريم »

كنت أعرف عنه شدة سخريته بالخرافات وعدم ايمانه بالخوارق والمعجزات ، فقد كان انسانا واقعيا لا يؤمن الا بالواقع والمنطق .

ضمنى واياه مجلس ذات ليلة وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، فقال لى :

– كنت أعتقد أن العلم قد هزأ بالسحر وقضى عليه .. فلم يعد هناك ما يمكن أن يخفى على الذهن البشرى ، حتى وقعت لى حادثة جعلتنى أهز رأسى حيرة ودهشة .. وجعلت كل معلومات الطب التى حشوت بها رأسى تتضاءل وتنكمش .. وتهاوت تجاربى ، وخبرتى وقدرتى ، وحل محلها ايمان عميق أشبه بايمان العجائز ، بأنه اذا ألقى الطب سلاحه وسلم العقل بالهزيمة ، فذلك لا يمكن أن يعنى اليأس .. لان هناك قوى خفية تستطيع أن تتدخل فى النهاية ، فتقلب اليأس أملا ، وتفعل ما عجز عنه الذهن بطبه وعلاجه وأدويته

وكل ما يملك من قوة مادية قوى وراء المادة ، قوى تكمن فى النفوس أو تشع من الأرواح أو تهبط من السماء أو ..

وتوقف عن الحديث ثم هز رأسه وهو ينظر الى ثم أردف يقول :

- لا تستطيع أن تصدق مثل هذا القول بسهولة .. حسنا .. خير لى أن أقص عليك القصة بحذافيرها .

ثم بدأ يروى قصته العجيبة قائلا :

- كنت أقطن فى مصر الجديدة ، وكانت تجاورنى فى المسكن أرملة تعيش وحيدة مع ابنها الكسيح المصاب بشلل الأطفال ، وقد تعودت أن أعوده من آن لآخر عيادة جار صديق ، ولم يكن هناك أمل فى شفائه .. فهو لم يقف على قدميه منذ أن ولد .. ولا أظن أنه كان يمكن أن يقف أو يسير حتى نهاية عمره . وكان هو وأمه يدركان ذلك .. فوطنا نفسيهما على الاستسلام للأمر الواقع ، وأخذا يقنعان على مر الأيام بحياتهما معا ، فهيآ فيها ما استطاعا من متعة ، وبات كل منهما قريرا راضيا .. وضرب كلاهما مثلا على أن الحب والاخلاص والشجاعة والايمان يمكن أن تعين المرء على مواجهة أقصى ظروف الحياة وتحمل شدائدها .

وكان الصبى - ويبلغ السادسة عشرة - مخلوقا هادئا لطيفا شديد الذكاء واسع الخيال .. ولم أكن أشك فى أنه يشعر فى كثير من الأحيان بالوحدة والحرمان .. الحرمان مما يمكن أن يتمتع به كل صبى من انطلاق فى الحياة ولعب مع الرفاق ومرح ولهو .. بل كنت واثقا كذلك ، أنه بعقله الراجح وذهنه المفكر يستطيع أن يحس مدى الحرمان الذى ينتظره فى غده .. الحرمان مما يمكن أن يتمتع به كل رجل من حب وزواج وأولاد .

وقد كان يحاول دائما أن يبدو أمامى مرحا سعيدا هانئا ، وأنه لا يأبه اطلاقا لما هو فيه .. ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يكبت بين آونة وأخرى

بضع كلمات تنطلق من فمه لتفضح دخيلة نفسه .

قال لى الصبى وأنا أزوره ذات مرة :
- كان أقصى أمل لى يادكتور أن أصبح رحالة أجوب بقاع الأرض وأستكشف مجاهلها .

ولم أدر كيف أجيبه ، اذ كانت تلك آخر أمنية يجب أن تجول فى نفسه !

ورأيته يبتسم ويهز رأسه ويقول مستدركا :
- أنا أعرف أنها أمنية متعذرة وأن من المستحيل تحقيقها ، ولكنى مع ذلك أستعين على تحقيقها بالوهم . لقد أصبح لى ولع كبير بالخرائط .. أنظر ..

ثم مد يده الى منضدة بجواره عليها مجموعة من الكتب والأوراق ، وسحب ورقة مطوية أخذ فى نشرها أمامه قائلا :

- أنا لا أستطيع السير .. ولكنى أستطيع وأنا راقد فى فراشى أن أذهب حيثما شئت فى غمضة عين أو فى لمح البرق كأنى أمتطى بساط الريح ، لقد بدأت أولى جولاتى فى القاهرة .. أنظر الخريطة .. انى هنا الآن ، هذه هى مصر الجديدة .

ووضع طرف قلم فى يده على نقطة فى الخريطة ، ثم استرسل يقول :

- هذا هو طريق الخليفة المأمون ، وهذا هو شارع الملكة المؤدى الى المحطة . لقد كانت أول رحلة لى فى القاهرة الى القلعة .. لقد سرت بعد ذلك الى الأوبرا بالعتبة فشارع محمد على حتى وصلت الى هذه المنطقة .. هذا هو جامع السلطان حسن وعلى الجانب الآخر يقوم جامع الرفاعى .. أنظر ، هذه هى صورتيهما ..

ثم مد يده الى المنضدة فأخرج بضع صور وأردف يقول .

- هذا هو جامع السلطان حسن ، أكبر جامع من نوعه ، بنى فى عهد المماليك وكان يستعمل مدرسة وجامعا .. لقد قرأت عنه فى بعض كتب التاريخ ، لم أمكث به كثيرا ثم عاودت السير فى طريقى صاعدا الى القلعة .. هذه هى صورة جامع محمد على ، ومن فوق القلعة وقفت أطل على القاهرة .. أنظر ، ما هو منظر القاهرة من القلعة .

ثم أخذ يعرض على الصور واحدة واحدة ويرينى طريق عودته وقد رسمه على الخريطة بالقلم الأحمر .

وهكذا بدأ الصبى رحلته الوهمية مستعينا بالخرائط والصور والكتب وسعة الخيال والقدرة العجيبة على العيش فى أحلام اليقظة .. وتعودت بعد ذلك في كل مرة أزوره ، أن أجلس بجواره ليشرح لى آخر رحلاته التى يقوم بها على بساط الريح ، أو على بساط الوهم وأجنحة الخيال ..

ووثقت الأيام أواصر الصداقة بيننا ، وأصبح الصبى يركن الى ويمنحنى كل ثقته ولا يخفى عنى شيئا من مشاعره وأحاسيسه .. ولم أشك أنه سعيد برحلاته وأنها قد بددت الكثير من الوحشة والسآمة التى كانت تكتنفه فى وحدته .

وانتهت رحلاته فى القاهرة وبدأ بعد ذلك جولاته فى مختلف بلدان القطر . يوما فى الاسكندرية ويوما فى الأقصر وآخر فى الغردقة ورابعا فى أسوان .

وتعودت أن أبادله النكات والمزاح .

قلت له ذات يوم وقد دخلت عليه فوجدته منهمكا فى فحص احدى خرائط الواحات :

- كنت على الشاطىء ولا شك ، فقد لوحت الشمس وجهك ! أحذر أن يسلخ جلدك .. يوجد نوع من الكريم يغير الجلد .. سأكتب لك اسمه .

– لقد ذهبت الى عيون « السخنة » قرب السويس ، هل ذهبت الى هناك ؟ انها مدهشة ! تصور ماء ساخنا ينبع من باطن الأرض ، وعلى بعد خطوات يترامى البحر أمامك وتقوم الجبال الشاهقة خلفك .. لقد كان منظرا رائعا .. هل تصدق انى لم أشأ الرحيل عن الطريق المرصوف بل فضلت المدق الصحراوى بين الجبال ؟ انى أحب المغامرة .

– ترى أين ستكون رحلتك القادمة ؟

– جولة بين الواحات فى الصحراء الغربية .. هذه منطقة ما زال بها الكثير من المجاهل .

– اذن لا تنس أن تأخذنى معك فى احدى جولاتك فاننى فى حاجة الى تغيير الهواء .

– هذه رحلات تحتاج الى قوة تحمل .. خير لك أن تنتظر حتى أبدأ جولاتى الساحلية .

وفى الزيارة التالية بادرنى بصيحة فرح قائلا :

– هنئنى !

– علام ؟

– أوشكت أن أكتشف واحة جديدة .. لقد ذهبت الى الواحات البحرية كانت رحلة شاقة متعبة وخاصة فى تلك المنطقة المسماة ببحر الرمال .. اسم على مسمى ، فرماله مغرقة خطرة .. وقد حاولت الذهاب من البحرية الى سيوة ، ان المنفذ الوحيد هو النقب رقم ١٣ .. وهو ممر شديد الوعورة ، ولكن اجتيازه ليس بالأمر المستحيل ، ولقد اجتزته فعلا .. وبدأت سيرى بين الرمال على طريق القوافل القديم المؤدى الى سيوة ، ولكنى توقفت فى هذه البقعة .. أنظر .

ووضع طرف القلم على نقطة بالخريطة المنشورة أمامه ، ثم اردف يقول :

– هذه النقطة هى تقاطع الطريق السائر شمالا الى المغرة ، انه طريق قديم لم يستعمل منذ مئات السنين .. هل تصدق اننى سرت فيه ؟ لقد كانت مخاطرة ، وخاصة انى أعتقد أن هذه الرمال المرسومة لابد قد انتقلت من محلها . وقد سرت فى الطريق حتى بلغت هذه النقطة .. انها تبدو منخفضة عما حولها .. وأنا واثق انى لو سرت الى اليسار قليلا فلا شك أنى سأعثر على آثار ماء ، والا من أين كانت القوافل السائرة تستقى ؟

وهززت رأسى فى حيرة ، ولم تكن لدى أية فكرة عن القوافل أو الواحات ، وما كان يهمنى قط أن أعرف من أين كانت تستقى ، ولكن لم أجد بدا من الموافقة قائلا :

– أجل ، لابد أن يكون هناك ماء كما تقول ، والا كان من أين يستقى ؟ هذا اكتشاف لو تم فانك تستحق أن تخلد به اسمك ، تهانئى الحارة ! ..

ومددت يدى أشد بها على يده ، وبدت عليه أبلغ آيات السرور والفرح .

ولست أنكر كم مر على هذا الحادث ، ولكن أغلب الظن أنه لم يمض أكثر من أسبوع عندما سمعت طرقات على الباب ، والطبيب كما تعرف عرضة لهذه الطرقات الطارئة فى أى وقت ، فهى تعنى دائما أحد أمرين : حياة تحل ، أو حياة ترحل ، انسان فى الطريق الى الدنيا أو آخر فى الطريق الى الآخرة .

وفتحت الباب فى عجلة فوجدت الطارق أم الصبى وقد بدا عليها اضطراب شديد وأمسكت بذراعى فى لهفة شديدة ثم أخذت تجذبنى الى الخارج لاهثة :

– أرجوك يادكتور ، أغثنى .

- ماذا حدث ؟ ماذا جرى له ؟ حادثة ؟ هل فعل بنفسه شيئا ؟

- لا أعرف انه ملقى فى فراشه كالخرقة البالية وقد احتقن وجهه وأخذ العرق يتصبب منه .

وسرعان ما ارتديت ملابسى وعدوت وراءها وأنا أسألها فى دهش شديد :

- لا أستطيع أن أفهم ، اشرحى لى ما حدث .

- لقد كان على أن أترك الدار برهة لقضاء بعض الضروريات وغادرته فى مكانه بين خرائطه وكتبه قريرا هانئا صحيحا معافى ، وانى لاكره أن أتركه وحيدا ، ولكن لابد لى من آن لآخر من الخروج لشراء بعض اللوازم أو لكى أصرف المعاش فى أول كل شهر ، وقد تركت له قبل أن أخرج « ترمسا » مليئا بالشاى وعلبة من الشيكولاته وأخرى من البسكويت ، وعندما عدت ..

ثم اندفعت تنشج باكية ، وضاعت كلماتها وسط زوبعة البكاء التى عصفت بها ، وأخذت أهدئها قائلا .

- أرجوك أن تهدئى ، خبرينى ماذا وجدت عندما عدت ؟ ان أقوالك ستساعدنى كثيرا .

وتمالكت المرأة بعض الشىء وعادت تقول فى صوت متهدج :

- عندما عدت ، ذهبت اليه رأسا فوجدته قد استقلى على ظهره كما تعود أن يفعل دائما عندما يرغب فى أن يستريح ، ولكن الذى استرعى انتباهى أمر غريب ، لقد وجدت علبتى الشيكولاته والبسكويت - وهما علبتان كبيرتان لم يؤخذ منهما شىء من قبل فارغتين ، ولم أجد بالترمس الملىء بالشاى قطرة واحده . لقد أتى عليهما جميعا ، وهو الذى لم يتعود أن يتناول أكثر من بضع قطع من البسكويت أو الشيكولاته تعد على الأصابع مع فنجان من الشاى ،

ووجدت كذلك أن بضعة ساندويتشات (كانت موضوعة على المنضدة) قد اختفت ، وتملكنى العجب وصحت به فى دهشة :

- كيف أكلت كل هذا ؟ لقد أصبحت غولا فجأة .

ولكنه لم يجب ، وأخذت أقترب من الفراش وقد ظننت أنه مستغرق فى النوم ونظرت اليه .

ومرة أخرى اندفعت فى بكاء عنيف ، وأخذ جسدها يهتز من قمة رأسها الى أخمص قدميها حتى بت أخشى أن يكون الصبى قد مات .

وبلغنا دارها ودلفت من الباب وسمعتها تهمس فى صوت مبحوح :

- لقد رأيت وجهه أحمر ملتهبا ، كأنما قد سار فى الشمس بضع ساعات .

غير معقول ، ان الصبى لا يمكنه السير فى الشمس ، ولا يمكن كذلك أن تكون الشمس قد أصابته من خلال النافذة . فقد كان اليوم كثير السحب لا تكاد الشمس تظهر من خلف سحابة الا لتتوارى وراء أخرى . وأجيت المرأة فى صوت خافت :

- مستحيل ، انى له بالشمس لابد أن تكحونى واهمة .
- كلا ، أنا واثقة مما اقوله .

لابأس ، سأفحصه الآن ، وأرجو أن تطمأنى ، فالمسألة لا يمكن أن تكون أكثر من انفلونزا بسيطة .

ورأيت الصبي ، وكانت أمه على حق .

هل تدرون ماذا يحدث للانسان عندما يتعرض مرة واحدة للشمس ويستمر معرضا لها مدة طويلة هل تدرون ما يحدث لجلودنا عادة فى البلاج من احمرار شديد والتهاب حتى تبدو كأنها محروقة .

لقد كان وجه الصبى ويداه وكل ما تعرض من جسده قد أصيب بضربة شمس شديدة خطرة .

ترى كيف يصاب مثله « بلطشة شمس » .

ولم أجسر على اظهار دهشتى أمام الأم حتى لا أزيد فى فجيعتها وكان على أن أقول شيئا على سبيل الخداع وبعث الطمأنينة فقلت :

– المسألة بسيطة جدا ، هذه حالة طارئة سرعان ما تزول ، وهى كثيرا ما تحدث نتيجة لتقلبات الجو .

وكان هذا القول هو ما استطاع ذهنى أن يدبره فى ذلك الوقت الحرج .

وأخذت أعالج الصبى وأجرى له الاسعافات اللازمة على اعتبار أنها « لطشة » شمس عنيفة . فقد كنت واثقا من أعراضها ، وان كنت واثقا كذلك من أن الصبى لا يمكن أن يصاب بضربة شمس لأن الشمس ليس لها سبيل اليه ، وليس له كذلك سبيل اليها .

ولم يفق الصبى من اغمائه فى ذلك اليوم ، ولكنه فى اليوم التالى تحسنت حاله ، وزالت الخطورة التى كانت تهدده ، وبدأ يتكلم :

وكان أول ما قاله هو أن قص على القصة بحذافيرها بمجرد أن اصبحنا على حدة .

فقال الصبى :

– لم أستطع أن أخبر أمى فهى لن تصدق ، ولكنك تعلم كل شىء وتستطيع أن تفهمنى جيدا .

ومد يده الى المنضدة فجذب احدى الخرائط ثم أمسك بالقلم وأخذ يحركه عليها برهة حتى وصل الى نقطة بها ، فثبت حرف القلم عليها وقال :

– هنا ، كنت أعلم أنهما هنا فى هذه البقعة ، هل سمعت عن الرحالتين اللذين أعلنت الصحف عن فقدهما منذ بضعة أيام لقد كنت أقرأ أخبارهما أولا بأول ، وكنت أتتبع رحلتهما فى الصحراء على الخريطة ، ولا يمكنك أن تتصور الانزعاج الذى أصابنى عندما قرأت أنهما ضلا طريقهما فى الصحراء وأنهما قد باتا فى عداد المفقودين ..

وهززت رأسى ثم أمنت على حديث قائلا :

– أجل ، كان خبرا مزعجا حقا ، ولقد أسفنا كلنا لهما .

ورد على الصبى فى حدة قائلا :

لم يكن ما أصابنى مجرد أسف ، لقد كنت أحس أن مصابهما مصابى ، فهما زميلاى ، لقد روعنى فقدهما وأحسست أن من الجبن أن أتركهما كذلك يترديان فى هاوية الموت دون أن أحاول أن أمد اليهما يد المساعدة ، وعلى ذلك فقد صممت على أن ..

وتردد برهة ، وكان على أن أجاريه فى كل ما يقول ، فقلت أستحثه :

استمر ، لقد كان هذا التفكير منك دليلا على المروءة والشجاعة .

– أجل ، صممت على انقاذهما ، فلم تكد أمى تغادر الدار حتى أمسكت الخريطة وأخذت أفحصها جيدا ، ثم عقدت النية على ألا أعود حتى أبغلهما .

– مدهش .

– لقد كنت دائما ياسيدى أشعر بالعجز وأنا جالس هنا فى مكانى ، وكان أكثر ما يحز فى نفسى شعورى أنى انسان بلا فائدة ، وعلى ذلك فقد تملكتنى النشوة عندما أحسست أننى أوشك أن أفعل شيئا وإن أكون انسانا ذا فائدة ، وأخذت أحزم علبتى الشيكولاتة والبسكويت والساندويتش والترمس ، وهو كل ما أمكن أن تصل اليه يدى . وما أمكننى كذلك أن أحمله فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، وبدأت الرحلة ، متتبعا الطريق بقلمى فى تأن وتؤدة خشية أن أضل

الطريق أنا الآخر ، فلا أستطيع أن أمد لهما يد المعونة وأخذت فى السير ، رويدا رويدا .. بدأت أحس لسعة الشمس ، ووحشة الطريق ، ومع ذلك فلم يكن بى أثر الخوف أو رهبة ، فقد كنت أحس أننى مخلوق على قيد الحياة وأننى رجل .

– لقد كنت دائما مخلوقا شجاعا وكنت رجلا على الدوام .

– أجل ، كنت أحاول أن أبدو كذلك ، ولكنك لم تكن ترانى وأنا أرقد فى الليل وحيدا ، أسكب الدمع فى صمت على الوسادة ، فقد كنت أحس أنى رمة بالية ، أما بالأمس ، فقد كنت مخلوقا آخر ، كنت كتلة أعصاب حية متحفزة متوثبة ، كنت أريد أن أصل الى الزميلين الضالين وأنقذ حياتهما ، فلم يوقفنى حر شمس ولا عصف ريح .

وأقول الحق أنى لم أكن أعرف كيف أحلل حالة الصبى . لقد كان مخلصا فى قوله كل الاخلاص ولقد رأيت بنفسى آثار الشمس على وجهه وجسده ، ومع ذلك فلم أحاول أن أتخلى عن منطق العلم ولم أدع لنفسى فرصة الاعتقاد بأشياء فوق طاقة الذهن البشرى ، ووجدتنى أتشدق بينى وبين نفسى ببعض اصطلاحات علم النفس وأرجح حالة الصبى الى احداهما

أجل . أن الامر لا يعدو أن يكون احدى الحالتين : اما الايحاء الذاتى ، أو التنويم النفسى .

هذا ما قلته لنفسى ، أما الطفل فقد قلت له مبدئيا تصديق كل ما قاله :

– وهل وصلت اليهما ؟

فاطرق برأسه وأجاب :

– أجل ، بعد أن كدت أيأس من الوصول وبعد أن أنهكنى السير وأحرقت الشمس وجهى وذراعى . ولقد وصلت فى اللحظة الأخيرة اذ وجدتهما فى الرمق الأخير ، وكذلك كنت . ولا أستطيع أن أنكر ما حدث بعد ذلك ...

وصمت صاحبى الطبيب لحظة ، ثم أردف قائلا :

- هذا هو ما حدث للصبى .

وأجبته فى دهشة شديدة :

- عجبا ! انه أمر خارق !

- لم يكن هذا وحده هو الشىء الخارق ، فقد أنقذ الرحالتين كما تعلم مما نشرته الصحف ، اذ أرسلت حملة تفتيش للبحث عنهما ، وقد نجحت فى العثور عليهما ووجدتهما فى حالة اعياء بالغ وقد استلقيا فى حالة أقرب الى الموت . وعندما تكلم أحدهما كان أول ما قاله لمن حوله : « أين الصبى الصغير ؟ » ودهش الجميع وسألوه عما يعنى ، فأجاب بأنهم لم يكونوا أول من أتى اليهما ، فقد سبقهم فى الوصول الى مكانهما صبى يحمل علبتين من الشيكولاتة والبسكويت وبضعة سندويتشات وترمس ملىء بالشاى ، ولقد وجدهما على وشك الهلاك فأعطاهما ما يحمل ثم اختفى ، ولولا ما حمله اليهما لما استطاعا العيش حتى هذه اللحظة .

- مدهش .. انه حقا أمر خارق ، انها معجزة !

- بقى أمر خارق آخر .. أو معجزة ثالثة .. لقد بدأت أرقب الصبى جيدا خشية أن يتكرر ما حدث له ، أتذكر أنى قلت لك انه لم يكن هناك أمل قط فى أن يقف على قدميه . هذه مسألة لا تحتاج الى مناقشة ، فقد سلم الطب بعجزه فيها ، وكان شفاؤها مستحيلا الا بمعجزة من السماء ، أو بقوة خارقة . القوة التى قلت لك انها تكمن وراء الماديات . حسنا . لقد حدثت المعجزة ، وشفى الصبى ، فان اطرافه بدأت تتماسك بعد تلك الحادثة . كما سرت الحياة فى أعضائه المسترخية رويدا رويدا ، وأخذت تقوى وتشتد وبدأ الصبى يسير فى حجرته ثم أخذ يتنزه فى الحديقة كأى سليم معافى .

عجبا ! كيف يمكن أن يحدث مثل هذا ؟ لو سمعته من انسان آخر غير

صاحبى لقلت حديث خرافة وقول هراء ! أما منه فلا أظن هناك شك فى صحته .

وأخذت القصة تدور فى ذهنى . حتى وجدتنى أسأله فجأة على سبيل الاستطلاع :

- وماذا فعل الصبى بعد ذلك ؟ هل أصبح رحالة كما كان يود أن يكون ؟ هل قام بالرحلات التى كان يقوم بها على بساط الريح ؟

- رحلة واحدة فقط . كانت الأولى والأخيرة ، لقد ذهب ليركب المترو فى أول مرة غادر فيها الدار ، فزلت قدمه وهوى تحت العجلات ، وذهب فى رحلة طويلة لم يعد منها حتى الآن !

لقد كانت تلك هى رحلته الكبرى . فى غمضة عين صعد الى السماء . بلا خريطة ولا قلم ولا بساط ريح .

●

عودة التائه

﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله
أموات بل أحياء ولكن لا يشعرون ﴾
« قرآن كريم »

أنا يا أخى غريب بينكم ، غريب عن دارى ، غريب عن وطنى .

كم تقت الى العودة اليكم ، وكم هفت نفسى الى جلسة بينكم .

كم حننت الى الدور المضيئة ، والطرقات الصاخبة ، والحوانيت المزدحمة ، والعربات والمركبات ، والملاهى والمسارح .

كم تقت الى أضواء المدينة ، وضجيجها وعجيجها .

بين رائحة البارود ، وذرات الغبار المثار ، كان أنفى يتلهف على رائحة يتضوع عبيرها ويفوح . وبين حلكة الخنادق . وصفرة الرمال ، كانت عينى تهفو الى لون يزهو أو نور يضىء .

كانت بنا لهفة اذ نخوض المواقع على الأهل والأوطان ، وكان الحنين يعاودنا بين الفنية والفنية ، يخبو بين جوانحنا برهة ثم يتأجج ، يخمده دوى المدافع ، وزئير المعركة ، فاذا ما هدأ الدوى وخفت الزئير استيقظ الشوق فى الحنايا ، واستعر الحنين .

عودة التائه

﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله
أموات بل أحياء ولكن لا يشعرون ﴾
« قرآن كريم »

أنا يا أخى غريب بينكم ، غريب عن دارى ، غريب عن وطنى .

كم تقت الى العودة اليكم ، وكم هفت نفسى الى جلسة بينكم .

كم حننت الى الدور المضيئة ، والطرقات الصاخبة ، والحوانيت المزدحمة ، والعربات والمركبات ، والملاهى والمسارح .

كم تقت الى أضواء المدينة ، وضجيجها وعجيبها .

بين رائحة البارود ، وذرات الغبار المثار ، كان أنفى يتلهف على رائحة يتضوع عبيرها ويفوح . وبين حلكة الخنادق . وصفرة الرمال ، كانت عينى تهفو الى لون يزهو أو نور يضىء .

كانت بنا لهفة اذ نخوض المواقع على الأهل والأوطان ، وكان الحنين يعاودنا بين الفنية والفنية ، يخبو بين جوانحنا برهة ثم يتأجج ، يخمده دوى المدافع ، وزئير المعركة ، فاذا ما هدأ الدوى وخفت الزئير استيقظ الشوق فى الحنايا ، واستعر الحنين .

وسمحت الظروف بفترة راحة وحملتنى الطائرة اليكم فى أجازة قصيرة . وكنت أحس من فرط الشوق أن الطائرة تتلكأ فى الجو وتتسكع بين السحب ، ووددت لو استطعت أن أضاعف سرعتها .

وأخيرا لاحت لى القاهرة من الجو ، وبدت لى المزارع القائمة على أطرافها منتظمة منمقة كأنها مرسومة بالمسطرة . والدور والطرقات والعربيات كأنها لعب الأطفال .

كانت المرة الأولى التى أعود فيها منذ بدأت الحرب وكان بى احساس نهم يجلس الى مائدة حافلة ، فهو فى حيرة بين أنواع الصحاف الشهية . وكانت المدينة تبدو من حولى وكأن غيبتى عنها لم تكن شهورا معدودة ، بل أعواما .

ومضى يوم ، ثم يومان وأنا بينكم فى نشوة الغريب العائد . ثم تبدل الحال فجأة فاذا بى قد أضحيت وأنا بينكم غريبا من جديد !

لقد نقضت الهدنة وبدأ اليهود هجومهم الغادر متسللين الى خطوطنا ، وحاولوا قطع مواصلاتنا . واستعر أوار المعركة من جديد . كيف يغمض لى جفن أو يهدأ لى مضجع وأنا بعيد عن جنودى وهم يقاتلون فى الميدان ؟ صدقنى يا أخى . لقد نسيت أضواءكم ، وعطوركم ، وضجيجكم ونسيت شوقى اليكم وحنينى لكم . وبت أتوق الى رائحة البارود وحلكة الخنادق وصفرة الرمال .

بى حنين الى القتال والدوى والضرب . بى رغبة جارفة فى أن أشارك جنودى استبسالهم فى الهجوم ، وصلابتهم فى الدفاع . ان دراهم دارى ، ومضجعهم مضجعى . أنا يا أخى غريب بينكم ، فأهلى هناك فى حومة الوغى رابضين كالأسود أو واثبين كالفهود !

أى جنودى الأعزاء : انى قادم اليكم !

وهكذا مرة أخرى عادت بى الطائرة .. وبى نفس اللهفة ونفس الشوق بل أشد كثيرا .

كنت أريد أن أستبق الزمن . كنت أريد أن أصل اليكم واتخذ مكانى بينهم وأشد أزرهم وأعينهم فى قتالهم .

وهبطت الطائرة بنا ، وسارت العربة تحملنى الى مقر كتيبتى فى المواقع الأمامية ، وأنا أستحث السائق لكى نصل فى أقصر وقت مستطاع .

وأسرع السائق جهده ، ولكنا مع ذلك لم نصل !

ان القدر فوق الجهد ، ولقد أبى علينا الا أن نقف فى منتصف الطريق ، بعد أن علمنا أن الطريق الى الكتيبة قد قطع ، وأنها قد حوصرت مع بقية قوات الفالوجة وعراق المنشية .

وعدت أدراجى كسير النفس ، مهموم القلب ، واستقر بى المقام فى مقر الرياسة ، وبدأت تتواتر علينا أنباء القوات المحاصرة ، فتثير فى نفوسنا حماسا واطمئنانا ونشوة ، وأدركت أن نسور الطير لا خوف عليها من بغاثه !

كانت الروح المعنوية لجنودنا هناك فى الذروة حتى لقد أحسست بالدمع يترقرق فى عينى تأثيرا بعزمهم الحديدى واستبسالهم فى القتال والاحتفاظ بمواقعهم سليمة ، رغم توالى الهجمات عليهم من الأعداء ...

وكرهت لنفسى أن أبقى بعيدا عنهم وأن تحرمنى الظروف من مشاركة جنودى خوض غمار معاركهم .

ومرت الأيام .. وفى كل يوم يقوى العزم ويشتد الايمان .. وتزداد بى اللهفة الى العودة الى مركز الأبطال ومأوى الصناديد .

كنت كالتائه الضال ، المنفى عن موطنه وأهله وخلانه . ولم يكن هناك

من وسيلة للعودة . حتى دعت الحاجة ذات يوم الى اتصالنا المباشر بهم واستقر رأى القيادة على أن يقوم بهذه المهمة ضابطان منا يخترقان نطاق الحصار ويصلان الى القوات الباسلة المستميتة فى الدفاع .

ولم تكن المهمة بالسهلة الهينة ، بل كانت مجازفة خطيرة . وسئل الضباط : من منهم يريد التطوع للقيام بها ، فتطوعوا جميعا . فاضطر القائد الى أن يجرى قرعة بينهم لاختيار اثنين منهم .

ونظرت الى القائد قبل أن يبدأ الاقتراع وقلت له فى اصرار :

– لن اشترك فى الاقتراع .

ورفع حاجبيه فى دهشة وتساءل :

– ألا تريد الذهاب ؟

– بل أريد ، ولن ، أشترك فى الاقتراع .. لأنى لا أطيق أن أحرم من الذهاب . لقد كان يجب أن أكون معهم لولا تلك الاجازة المنحوسة التى أبعدتنى عنهم . انى أشعر بأنى غريب بينكم ، فذهابى اليهم لن يكون سوى عودة غريب الى ذويه !

ونظر القائد الى من حوله مستشيرا ، ولكنى أردفت مؤكدا قبل أن ينبس أحدهم ببنت شفة :

– سيدى ، انى أريد الذهاب .

وضحك القائد ثم أجرى الاقتراع لاختيار ضابط يتولى القيام بتلك المهمة .

★ ★ ★

سكون سائد وصمت عميق ، وليل كموج البحر أرخى سدوله ، وسماء ترتجف فيها النجوم وجلة خائفة ، وصحراء امتدت فيها الربى والوهاد ، وبدأ

كل ما فيها قفرا فى قفر .. لا تسمع فيها لاغية ، ولا يسرى فيها من علامات الحياة الا بضعة أشباح تطوى الفلاة كأنها الذئاب .

كنت وصاحبى قد تسللنا من المعسكر تحت ستر الظلام وسرنا مطرقين . صامتين . تتبعنا دابتان تحملان الذخائر والمؤن وتطرقان الحصى بجوارها .

كنت فرحا بالعودة الى رفاقى ولكنها كانت فرحة كبتتها رهبة الليل والقفر والخطر المجهول الذى يمكن وراء كل ربوة ومن كل صوت وفى كل شبح .

كنت أدرك تماما المصير الذى سنتردى فيه لو وقعنا فى يد العدو .

وطال بنا السير ، وبدأ صقيع الليل ينفذ الى عظامنا ، وتوترت أعصابنا من طول الارهاف والانصات ، كنا نتوهم في كل عشب كمينا ، ونتخيل خلف كل ربوة ثلة من العدو تتأهب للانقضاض علينا . وكنا نبصر فى الأفق المظلم أشباحا تروح وتغدو .

وتبادلنا بضع كلمات نقطع بها ذلك الصمت الطويل وننفض بها عن نفسينا تلك الرهبة الجاثمة .

ولكن الكلمات خرجت من فمينا ثقيلة فاترة ، فبددها السكون المحيط قبل أن تبدد هى السكون ! وسرعان ما غرقنا فى الصمت مرة أخرى . وفجأة مزق السكون صوت رصاصة تدوى وتئز . وأعقبتها صيحة أتت من قمة على بعد متسائلة .. ثم عاد السكون فطوى الدوى وأخمد الصياح .

وانطرحت وصاحبى أرضا مصوبين مدفعى التومى الى مصدر الصوت وكتمنا أنفاسنا منتظرين .

ولم تمض لحظة حتى عادت صيحة العدو تشق السكون مرة أخرى ..

ثم أعقبها بعد ذلك وابل من الرصاص تناثر حولنا .

ولم نجد بدأ من أن نجاوب الطلقات للدفاع عن نفسينا وأخذنا نزحف حتى وصلنا الى ثنية قريبة أخفينا الدابتين وراءها وأخذنا نطلق النيران من وراء حافتها .

واستمرت الطلقات تدوى وتئز ، تصوب في حلكة الليل من مجهول الى مجهول . ثم سمعنا صرخة تحملها الريح الينا خافتة مكتومة ، وسكت أحد المدافع التى كانت تصلينا بنيرانها .

ولم تمض فترة قصيرة .. حتى سقطت قذيفة على مقربة منى ، وأحسست بقلبى ينعصر فى جوفى ، وبأصابعى تجمد على مقبض المدفع .

لقد استشهد زميلي الوحيد !

وسرت فى جسدى رعدة وأنا أرى رأسه تتهاوى على الرمال على أنى ما لبثت بحركة غير ارادية أن مددت يدى اليسرى فقبضت على مدفعه .. وعاودت اطلاقه ، حتى لا يدرك العدو أنه أصابنا بأية خسارة .

ووجدت ذهنى يفكر فى سرعة ماذا يحدث لو أصبت أنا الآخر ؟ ماذا أبغى من استمرارى فى القتال بعد أن أصيب صاحبى ؟

ان مهمتنا ليست الاشتباك مع العدو ، ولكن مهمتنا الاولى هى أن نصل الى قواتنا . ورفعت يدى عن مدفع صاحبى ومضيت أطلق مدفعى برهة . ثم صحت فجأة صيحة مدوية .. كأنما قد أصابتنى احدى طلقات العدو ، وكففت عن اطلاق النار .

ومضت فترة من الوقت .. ورصاص العدو يدوى من حولى دون أن يجد ما يجاوبه .. فاعتقد أنه قد قضى علينا وكف عن الضرب .

وكان أول ما فعلته أن فحصت صاحبى ، فوجدت الدماء تنزف من

جرح فى كتفه .. ولكن أنفاسه مازالت تتردد خافتة متقطعة .. لقد كان على قيد الحياة .

وسحبت جسده ببطء وسكون ، وأخذت أزحف به حتى توارينا وراء كومة من الأعشاب .. وانتظرت فترة أخرى حتى آمن شر العدو ثم رفعت جسده فوضعته على ظهر احدى الدواب وبدأت السير فى حذر ، حتى ابتعدت عن المنطقة التى حدث فيها القتال .

وهكذا عاودت السير وصاحبى الجريح ملقى على ظهر الدابة منهك القوى فاقد الوعى ، حتى وصلت أخيرا الى مواقعنا ، وصلت وحدى ، فلم يبقى من صاحبى الا جثة هامدة .

ولم يكن بى وقتذاك من الأحاسيس ، سوى احساس واحد . لقد تبدد من قلبى الفرج ، وتبددت الرهبة ، وكبت الحزن على صاحبى ، ولم يعد يصطخب فى نفسى سوى الرغبة فى الثأر !

كان جوفى يغل بالغضب ، وكنت أود أن أنطلق بين الأعداء فلا أتركهم سوى أشلاء مهشمة .

وتلقانى صوت حبيب الى نفسى يهتف بى :
قف ، « من أنت ؟ » .

وناديت الحارس باسمه ، وذكرت له اسمى ، فهتف مرحبا فى دهشة وذهول ، وسألنى التقدم .

وأنزلت بينهم جثة صاحبى لأوسدها الثرى ورأيت وجهه تشيع فيه علامات الرضا والهدوء ، وأحسست أنى فعلت من أجله شيئا ، انه يستطيع أن يرقد بيننا ، وأن يوسد مثواه الأخير بأيدينا .

ووقفت بين رجالى وقد أحسست بالطمأنينة والأمن ، وشعرت بالثقة

ملء نفسى ، وكأنى قد ملكت أقوى أسلحة العالم وأشدها فتكا .

وشاع بين الرجال نبأ مجيئى فسرت فيهم موجة فرح ، وكان الوقت حينئذ قبيل الفجر . وتوجهت الى رياسة الكتيبة لأبلغ قائدها نبأ مجيئى ، ولأتلقى منه التعليمات .

ووصلت اليه وقد انتهى من صلاة الفجر ، فتلقانى بترحيب تشوبه الدهشة واللهفة والشوق ، ورويت له ما حدث .. فأمرنى بأن أذهب لآخذ نصيبى من النوم والراحة .

وغادرت القائد متجها الى مقر سريتى ، ولكننى لم أكد أتقدم خطوة حتى سمعت دويا شديدا وانهال على مواقعنا سيل من قذائف الهاون المدفعية . ان العدو لا شك قد نوى هجوما . وهو يمهد له بقذائفه .

وتسمرت فى مكانى برهة ، ثم وجدتنى أضغط على أضراسى فى غيظ شديد ، ثم عدوت الى موقع سريتى .

لا ضرورة الآن للنوم أو الراحة .

واتخذت موقعى بين الرجال فى أحد الخنادق ، واستمرت القذائف تنهال من حولنا ، وأحسست فى نفسى برغبة وحشية فى القتال . تلك هى فرصة الثأر لصاحبى الذى لم يهدأ بعد فى مرقده .

وأخذنا ننتظر . وأنا أدعو الله أن يكون العدو ينوى الهجوم فعلا ، وألا تكون قذائفه لمحض الازعاج .

وفجأة أحسست بفرحة شديدة تسرى فى جوانحى .
حمدا لله ، لقد بدأ الهجوم !

وكان أول ما فعلت . أن أعطيت أمرا للجنود ألا يطلق أحدهم طلقة

واحدة مهما اقترب العدو منهم - حتى أمرهم بذلك .

ثم بدأت أرقب وأنتظر .. أخذ العدو يقترب ، وجنوده يتسللون الى مانع الأسلاك الشائكة المحيط بمواقعنا . ثم أخذوا يعملون فى احداث ثغرة به لكى ينفذوا من خلاله .

وأتم العدو فتح الثغرة وجنودنا رابضون فى مواقعهم لاتبدو منهم أقل حركة . وساد الربى السكون كأنها خاوية على عروشها حتى خيل الى أنى أكاد أسمع صوت أنفاسهم .

وازدادت أعصابى توترا ، ووجدتنى أقرأ الفاتحة وأدعو الله أن يلهم جنودى الصبر والثبات ، فقد كنت أعلم أن المسألة لم تكن هينة . بل تحتاج الى أعصاب من حديد ، اذ من العسير على الجندى أن يرى عدوه قد أضحى منه على مرمى حجر دون أن يحرك ساكنا وظهرت دبابات العدو الثقيلة تتبعها موجات من المشاة ، وأخذوا فى الاقتراب من الثغرة ونحن جاثمون فى صمت عميق .

ولست أشك فى أن العدو قد تملكته النشوة ، وظن أنه أخذنا على غرة واجتازت القوات الهاجمة الثغرة وأخذت فى التدفق نحو مواقعنا محاولة تطويقنا والوصول الى الطريق الواقع خلفنا .

وزاد اقترابهم منا شيئا فشيئا . وأحسست أن أعصاب الأسود الرابضة تزداد توترا وأنهم ينظرون الى فى قلق ، كأنما خشوا أن أكون قد نسيتهم ونسيت المعركة ! .

وأخيرا أضحت المسافة بيننا لا تزيد على خمسة وعشرين ياردة وقد تعرض لنا العدو بجانبه وهو يحاول الالتفاف حولنا .

وهنا أصدرت الأمر بالضرب . وأخذت أرقب المعركة فى هدوء .

اللهم لا شماته ، ولو انى كنت وقتذاك نموذجا للشماتة .

ان الثأر لذيذ ، ولا سيما اذا كان موجها الى من يستحق الثأر الى خائن لئيم غدار ! انطلقت النيران منهالة كالغيث مندفعة كالسيل . تحصد العدو حصدا ، ولم يكن الجنود فى حاجة الى تصويب فقد كانت أجساد العدو أمامهم ، لا يمكن أن تخطئها الطلقات !

وتساقطت الجثث مكدسة بعضها فوق بعض ، فى حين دوت طلقات المدافع المضادة للدبابات فكانت كل طلقة منها تسقط دبابة .

وتوالت موجات العدو . وهى تتكسر على مواقعنا كما تتكسر موجات البحر على الشاطىء . فتصير الى العدم .

وأخيرا ارتدوا على أعقابهم مهزومين بعد أن فرشوا الأرض بجثثهم ، وهم الذين لا يتركون وراءهم قتيلا الا حملوه معهم ..

ولكن أنى لهم الوقت لكى يحملوا تلك الأجداث من القتلى ..

وساد الهدوء مرة أخرى ، ولكنه لم يطل فقد أعاد العدو الكرة . رغبة منه فى مفاجأتنا لاعتقاده أننا قد أخلدنا الى الراحة بعد المعركة ، ولكننا أذقناه من الكأس نفسها !

★ ★ ★

وانتهت المعركة أخيرا وأحسست أن التعب قد أخذ منى مأخذه ، ولكنى علمت أنه مازال على واجب يجب أن أؤديه قبل ان أستريح .

كان على أن أشيع صاحبى الراحل ، ثم أواريه التّراب .

وذهبت الى الجسد المسجى . واعجبا . لقد زاد وجهه هدوءا وغبطة ، وزادت علائم البهجة والرضا .. وأحسست وأنا أراه يثوى فى مقره أنه لا يدفن فى الأرض بل يوضع على هام السحب .



﴿ وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ .

« قرآن كريم »

تعالى معى نتبع أحمد أفندى الصراف الى مقر عمله . لقد تناول الرجل افطاره من بيضتين مقليتين وقطعة جبن وألقى تحية الصباح على أم أحمد الخادمة ثم هبط بضع الدرجات التى تفصل طابقه عن أرض الطريق ، وتمهل برهة أمام بائع الجرائد حتى ناوله الأهرام ثم حث الخطأ فى طريقه الى المكتب .

ان المسافة بين البيت والمكتب قصيرة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق سيرا على الأقدام ، كان البيت فى شارع والى بكوبرى القبة ، وقد دلف أحمد أفندى منه الى شارع ابن سندر وسار بحذاء سور المترو حتى وصل الى المثلث الصغير الذى تلتقى فيه الشوارع المفضية الى القبة وكوبرى القبة والخليفة المأمون وعبر أحمد أفندى الجزيرة وسط الميدان واتجه فى شارع

سكة حديد السويس وبعد هنيهة توقف أمام باب يتوسط سورا ضخما كتب عليه وزارة الأوقاف - تفتيش القبة .

لندع أحمد أفندى يحيى الخفير الواقف على الباب ثم يصعد الى مكتبه ولنتريث برهة لنتجول حول البناء جولة عابرة .

عجيب هذا المكان ، اذ لا تكاد تبدو عليه سيماء المكاتب . فهو سراى عتيقة ، أخنى عليها الذى أخنى على لبد ، أول ما يضالعنا فيها سورها الحجرى المرتفع وبابها الخشبى الضخم ، فاذا جاوزناه وجدنا الحديقة الواسعة جرداء مهملة متربة مشعثة قد بذل فيها جهد ضائع لتشذيبها وسقيها ورسم بعض أحواض الزهور المتناثرة فيها ، ولكن الجهد قد أضال من أن يصل الى أطرافها النائية ويكشف غمة مجاهلها ويزيح عنها أكوام الأتربة والقمامة المتراكمة غير أن الأشجار العتيقة القائمة هنا وهناك من نخيل وجازورينا واستراكوليا والنافورة الحجرية المحطمة تعطى الدليل القاطع على الحديقة كانت فيما مضى غناء فيحاء .

لنترك السلاملك على يميننا فلا أظن سلمه بمفض الا الى حجرتين عانيتين كانتا فيما مضى تستعملان للضيوف ولا شك أنهما يستعملان الآن كحجرات للموظفين ، ولنتقدم الى البناء الأصلى فنصعد درجه الرخامى المستدير ذى الفرعين حتى نصل الى الشرفة القائمة فى صدر البناء والتى تؤدى الى صالة الدور الأول القائم فوق البدروم .

السقف عال ملىء بالزخارف والنقوش . والأبواب تعلوها شراعات زجاجية كبيرة المساحة ، تشعر الناظر اليها بالكارثة التى يمكن أن تحل اذا ما كسرت احداها ، والواقف فى الصالة لا يملك الا أن يتساءل عن طول قامة أهل الجيل الماضى ، وهل كانوا يسيرون فرادى أما كانوا لا يسيرون الا وقد حمل أحدهم الآخر على كتفيه ، والا فعلام كان كل هذا الارتفاع فى الأسقف .

فاذا عبرنا الصالة تاركين الحجرات التى على الأجناب مشغولة بأصحابها من مأمور ووكيل وغيرهما واتجهنا الى الباب المواجه لنا والمؤدى الى السلم الداخلى للبناء لم يصعب علينا بعد ذلك أن نعثر على حجرة أحمد أفندى الصراف .

انها الحجرة التى على اليسار فى الطرقة القائمة على السلم الداخلى أو بطريقة أوضح . دورة المياه فى سالف الزمن عندما كانت السراى فى أوج مجدها .

لنقتحم الحجرة ، أو دورة المياه السابقة ، لاتتأففوا فالمكان نظيف جاف ، لا مياه ولا روائح كريهة ، فقد كف عن استعماله منذ زمن ، والمكان فى حد ذاته مكان ذو فخامة سابقة ومجد قديم .

ألديكم فكرة عن حمامات البيوت القديمة . باب أول . وباب ثان هنا باب أول يؤدى الى حجرة مظلمة صغيرة ملاصقة للحمام الأصلى وتستعمل فى الراحة والاستجمام والهدوء بعد الحمام وقبل الخروج الى الهواء الطلق ، انها الآن فارغة خاوية لا ايوان بها ولا أرائك غير صندوق خشبى عتيق مغلق ، أغلب الظن أنه يحوى دوسيهات قديمة وأوراق بالية . ويصل الحجرة بالحمام باب ونافذة صغيرة فاذا كنت تنوى الصرف وقفت أمام النافذة حيث يطل عليك وجه أحمد أفندى وهو جالس فى الحمام أمام الخزانة ، واذا كان بينك وبين أحمد أفندى معرفة أو كنت من ذوى المكانة فلتتفضل بالدخول من الباب لتتخذ مكانك على أحد المقاعد أمام أحمد أفندى ، فقط لكن حذرا ، واحرص على الا تصطدم رأسك بحافة الباب العليا فالباب منخفض وأرض الحمام عالية ، اذ وضع عليها أحمد أفندى مصطبة خشبية تقيه رطوبة الحمام ، على أية حال . سيحذرك أحمد أفندى عند الدخول ، ولكن عند الخروج ، ستشج رأسك ، لأنك ستنسى وسينسى أحمد أفندى .

نحن الآن ، فى الحمام باعتبار ما كان وفى حجرة خزانة وزارة الأوقاف قسم القبة باعتبار ما هو كائن .

الحجرة لطيفة ، ألطف ما بها سقفها المحدب الشبيه بالقباب والمقسم الى فجوات بكل منها طاقة صغيرة مغطاة بقطعة مستديرة من الزجاج الملون ، ولذا فقد تدهشك - اذا لم تكن لديك فكرة عن الحمامات القديمة - تلك الأضواء المنبعثة من السقف المختلفة ألوانها كأنها قوس قزح .

والمكان قد اختلط فيه عز تالد بذل حاضر ، فالى جانب السقف ذى الأضواء الملونة ترى الضوء الأبيض ينبعث من بضعة فتحات تحطم زجاجها ، يعلم الله ما يعانيه أحمد أفندى منها فى يوم مطير ، والى جانب رخام الأرض ترى الجدران وقد عبثت بها فرشاة الجير وترى بقايا حوض ركبت عليه طرف ماسورة نزع عنها الصنبور وأغلقت بطابة حديدية .

أما محتويات المكان فلا تزيد عن الخزانة الحديدية التى لا ينسى أحمد أفندى أن يغلقها اذا خطا خارج الحجرة خطوة واحدة . وبجوارها دولاب وضعت فيه زجاجات حبر وشمع أحمر وأوراق وسجلات ونماذج وأمام الخزينة مكتب أحمد أفندى ومقعد أحمد أفندى ، وأحمد أفندى نفسه .

لنتأمل أحمد افندى برهة وهو مكب على رصد بعض الأرقام فى احدى الاستمارات ، ان عمره - من مظهره - يتراوح بين الأربعين والخمسين وان كان فعلا لم يتجاوز الأربعين وهو شديد نحول الجسد نحولا من درجة :

أن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت   لو توكأت عليه لانهدم

أو

كفى بجسم نحولا اننى رجل   لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

بارز عظام الوجنتين . مطبق الأصداغ ، لايفتأ بين آن وآخر يحرك

فكيه متحسسا طقم الأسنان الجديد ، وفوق عينيه ثبت منظاره السميك ذا الاطار الذهبى ، وهو أفخم ممتلكاته الظاهرة ، اذ تبدو الرثاثة والاهمال جلية فى بقية ثيابه من أول طربوشه حتى حذائه رغم الياقة القطيفة التى وضعها لمعطفه والجتر الذى غطى به قدميه .

ولم يكن أحمد أفندى بالرجل الفقير . بل هو رجل « مبسوط » يستمد بسطته من ناحيتين أولاهما غنى النفس وقناعتها وزهدها وحمدها الدائم لنعمة الله وثانيها أن الفقر لا يقاس بضآلة المرتب بل بالفارق بين الدخل والمنصرف ، وقد يكون دخله قليلا ضئيلا ولكن مصروفاته أقل وأضأل ولذلك فان ميزانيته دائمة التوازن ، لم تختل مرة واحدة بل ان لديه احتياطا مدخرا مستمر الزيادة .. زيادة قد تكون ضئيلة ولكنها ثابتة ومستمرة .

ان أبواب الصرف لديه لا تتعدى المأكل والمسكن ، فليس لديه أسرة يعولها ، بل هو كما يقولون مقطوع من شجرة ، لم يقدم على الزواج ، لأنه لا يستطيع أن يقدم على شىء أبدا بل هو من نوع منتظر ، مستسلم ، يعتقد أن ما كتب سيكون .

واذا كان الله يريد له الزواج فسيرزقه بابنة الحلال وليس عليه سوى الصبر والانتظار وزيادة الاحتياطى الذى يدخره لمهمة الزواج .

أما باب النزهة والشبرقة - فقد كان ضمن الأبواب المجانية ، التى لم يرصد لها مليما واحدا فقد كانت نزهته الدائمة هى « الشلة » أو الجمعية . وهى رهط من أترابه يجتمعون كل يوم فى منزل أحدهم ليشربوا القهوة ويقرأوا بعض الكتب الدينية .

ووضع أحمد أفندى الريشة وجفف الحبر بالمنشفة الخشبية العتيقة ثم مد يده بالاستمارة الى الفراش وقال له :

- امضها من على أفندى ومن زكى بك وأحضرها ثانية . وغادر

الفراش الحجرة وأخذ هو يقلب بضع أوراق أمامه ويرصها بانتظام حتى وقع بصره على النتيجة المعلقة على الحائط ، فتوقف برهة ، وأخرج الساعة من صديريته ونظر فيها ، ثم أعادها وعاد يقلب الأوراق وقد بدأ عليه شيء من الاضطراب وشرود الذهن . بقى ربع الساعة ، فاليوم هو السادس والعشرون ، والساعة الثانية عشرة الا ربعا ، ان موعدها مضبوط لم يختلف مرة واحدة حتى ليستطيع أن يضبط عليها ساعته .

أمرها عجيب ! .. أم ترى أمره هو العجيب .. بل ان أمرهما معا لعجيب .

أما عن أمرها ، فعجيب فيه ، تلك الدقة وذلك الانتظام ، الساعة الثانية عشرة في اليوم السادس والعشرين من كل شهر ، تدق الساعة مع دقات قدميها ، ولكن أى عجب فى ذلك ؟

أى عجب في أن تحضر لتقبض المبلغ الممنوح لها من خيرات الأوقاف فى موعد بذاته وأن تواظب على ذلك الموعد .

لا ، لا ، ليس هذا هو العجيب فى أمرها ، ولكن العجيب ، فيها نفسها وفى ذلك الجو الذى يحيط بها .

ذلك القوام الطويل المتشح بالسواد من قمة رأسه الى أخمص قدميه والوجه المحجوب باليشمك الأبيض وقد بدأ منه الحاجبان الأسودان المقرونان والعينان اللتان مازالتا يشع منهما البريق رغم تلك الخيوط الحمراء الرفيعة التى جرت بها يد الزمن ورغم تلك الغضون التى خطها الكبر حول جفنيها .

كانت تدخل الحجرة المتواضعة لتتخذ مكانها أمام النافذة الصغيرة حتى تتسلم بضعة جنيهات - كأى فقير ألجأته الحاجة ودفعه العوز الى مد يده لتلقى بعض الاحسان - فاذا الحجرة قد ملأها جو عجيب من العظمة والارستقراطية ، واذا بالسيدة السائلة تبدو وكأنها سلطانة كريمة تفرق على

من حولها من المعوزين البؤساء .

كانت تمد يدها من النافذة بالسركى ، فكان ينعم النظر فى يدها ويأخذ فى كل مرة بدقة تركيبها وجمال صنعها وصفاء بشرتها ، انت اليد طويلة مسحوبة والأصابع دقيقة منتظمة .

وكان يتناول السركى ، فيمر عليه ببصره مرا سريعا ، ويتوقف برهة أمام اسم صاحب المرتب ، « نور مثال عصمت جمال الدين » .

ثم يرفع اليها عينيه فتحنى رأسها بتؤدة وتقول له فى صوت خفيض هادىء :

- نهارك سعيد يا « بك » .
- نهارك سعيد يا هانم .

اذا كانت قد منحته « بك » أكثير عليه أن يمنحها « هانم » وهى الجديرة بلقب أميرة أو سلطانة .

ويسألها ثلاثة قروش ثم يمد يده بالأربعة جنيها وبالاستمارة حتى توقع عليها ، فلا تكاد توقع حتى تحيي وتنصرف .

ويظل ذهنه يتبعها بعد أن تختفي ، فيراها تهبط الدرج الرخامي ومن حولها الأتباع وتسير وسط الحديقة اليانعة الباسقة وتتقدم الى الباب حيث العربة المطهمة قد وقفت في الانتظار ، وتستقر مكانها وتنطلق بها العربة يعدو أمامها الخواص .

أجل ، لا أقل من ذلك ، انه لا يستطيع أن يتصور الا كذلك .

انه لا يستطيع أن يتصورها تجر ساقيها على الأرض وتثير الغبار بحذائها البالى وطرف ثوبها الممزق المرتوق ، وقد أخذت تتوكأ على مظلتها العتيقة .

وعاد احمد أفندى ينظر الى ساعته ، « بقى خمس دقائق » لقد بات على مر الأيام ، ينتظر حضورها ، اذا أضحت تهيىء له نوعاً من الاحساس ، يشبه الى حد كبير ذلك الاحساس الذى كان يتملكه عندما يجلس في ليالى الزفاف وهو ما زال صغيرا فيرقب العرائس فى أبهى حللهن وأكمل زينتهن . أو عندما كان يقف على قارعة الطريق فيرقب احدى عربات الأميرات تمر أمامه ولمح من وراء الزجاج الوجه المحجوب باليشمك

ودقت الثانية عشرة ، وانتظر أن يسمع وقع أقدامها ، ولكن الدقائق أخذت تمر حتى بلغت النصف بعد الثانية عشرة دون أن تحضر . وعاد الى داره ، وهو يحس بضيق لم يتعوده ، وأخذ يتناول الغداء بلا شهية ، ثم جلس على الأريكة يستريح وأخذ يرقب أم أحمد ترفع بقايا الطعام ، وشعر برغبة شديدة فى أن يحدثها عن « نور مثال » لقد كان يود بطريقة ما أن يفرغ بعض ذلك القلق الذى يملأ صدره ولم يدر كيف يبدأ الحديث ، ولا سيما أنه يخشى أن تظن المرأه به سوءا ، أو أن تتوهمه يكن لهذه السيدة أحساسا خاصا .

ولكنه - رغم خشيته - لم يستطع الصمت ، فقال بطريقة عابرة :

- أتذكرين هذه السيدة التى حدثتك عنها ذات مرة .
- أية سيدة ؟
- التى قلت لك أنها تحضر دائما فى ساعة مخصوصة فى يوم مخصوص

ما لها ؟

انها لم تأت فى موعدها اليوم .

- ربما عاقها عائق.
- مثل ؟
- المرض .
- مسكينة ، من تظنين يرعاها اذا مرضت ؟

- أهلها وأقاربها .
- لا أظنها بذات أهل أو اقارب .
- من ادراك .
- لو كان لها لما لجأت الى الأوقاف .
- لها ربنا يا أحمد أفندى ، لا تشغل نفسك بهموم الناس .

وانتهى الحديث عند هذا الحد ، وكان هذا اقصى ما استطاع أحمد أفندى أن يفعل لتخفيف قلقه على السيدة الغائبة ، وكل ما كان عليه أن يفعل بعد ذلك هو أن ينتظر شهرا آخر .

ومرة أخرى جلس ينتظر عقربى الساعة ليلتقيا عند الثانية عشرة ولكنه فى هذه المرة لم يخذل ، فقد وصل الى أذنيه وقع أقدامها ، بطيئا متثاقلا ولكنه جميل فى أذنيه لا يخطئه قط .

ووقف أمام النافذة ومدت يدها بالسركى فتاوله أحمد أفندى وقال بمنتهى الأدب .

- حمدا لله على السلامة ، انك لن تأخذى شهر يناير ، لقد اضطرنا الى أن نضعه فى الأمانات أظن أنك ستضطرين الى الانتظار بعض الوقت حتى تصرفه من الأمانات ، تفضلى اخفضى رأسك قليلا حتى لا تصدم بالباب ، أجل هكذا ، اجلسى ، استريحى على هذا المقعد حتى أنهى لك المسألة ، لا تؤاخذينا على ضيق المكان ، انه كان فيما مضى حماما ، أتشربين قهوة .

- كتر خيرك . لا داعى للتعب .
- يا محمود ، محمود ، هات قهوة للهانم ، أهلا وسهلا .

وانهمك أحمد أفندى فى الكتابة حتى يعجل بصرف مبلغ الشهر السابق

وان كان انهماكه فى الكتابة لم يمنعه من أن يسترق النظر اليها من آن لآخر .

لقد كانت المرة الأولى التى يراها فى الضوء على مقربة ، واستطاع أن يكشف بسهولة عن رثاثة ثوبها وآثار البلى والرتوق التى به وبنظرة سفلية كشف حذاءها البالى العتيق ... واستطاع كذلك بسهولة أن يبصر غضون وجهها وعروق يديها .

ومع ذلك ، لم يقلل ما أبصره من قيمتها فى نفسه ، لقد ظلت كما هى الأميرة الكريمة ، والسلطانة العريقة الأصل الرفيعة الشأن .

وانتهى من اجراءاته ، ووقعت بامضائها على ما أراد وتسلمت النقود وهمت بالرحيل ، ولكنها قبل أن تغادر الحجرة ، ترددت برهة ، وبدا كأنها تود أن تقول شيئا .

ووقف أحمد أفندى ينتظر ما تريد ، وبعد برهة صمت قالت فى تردد مشوب بكثير من حياء :

– هل أستطيع أن أشاهد الدار . وأجول جولة فى الحديقة .

ونظر الرجل اليها فى دهشة ولكنه أجاب بلا تفكير :

– أجل ، أجل ، تستطيعين بالطبع ، وان كنت لا أرى شيئا بها يستحق الرؤية .

وخرجا الى الصالة فوقفت تتأملها برهة ثم أشار هو الى الحجرات قائلا : هذه حجرة المأمور ، وهذه حجرة الباشكاتب ، وهذه حجرة الكتبة ، هل ترغبين فى رؤيتها .

– لا ، لا ، لا داعى لازعاجهم ، انى أريد أن ألقى نظرة عابرة هل أستطيع الآن أن أجول فى الحديقة .

– الحديقة . انك ستلوثين نفسك بالقمامات والأتربة وهبط معها فجالا وسط أكوام الأتربة والأخشاب والحجارة ثم ودعها الى الباب . ولم ير بالطبع العربة المطهمة ولا الخيل الأصيل ومع ذلك فقد استمرت هى ، هى الأميرة العريقة .

وفى تلك الليلة ، رأى لأول مرة ذلك الحلم العجيب ، لقد وجد نفسه بباب البيت ذات صباح وهو يسير فى طريقه الى المكتب ، ولكنه لم يكد يبتعد عن البيت حتى وجد نفسه لا يسير على قدميه بل يمتطى صهوة جواد أصيل ، يملأ المكان صهيلا ونهنهة ، ووصل به الى شارع المترو ولكنه لم يجد هناك أثرا للمترو بل وجد فى المنحدر العميق الذى يجرى فيه المترو أسفل الكوبرى نهرا منبسطا عريضا تجرى فيه المياه هادئة صافية ، وسار كعادته بجوار النهر متجها الى الميدان ، ولكنه أحس بوطأة الشمس تشتد وأصابه العطش فهبط من فوق الجواد ليشرب من ماء النهر .

ووقف برهة يعجب من نفسه ، لقد كانت ملابسه تثقل عليه ، كان يلبس حذاء طويلا ودرعا كفرسان العصور الوسطى وكان يضع على رأسه خوذة من الصلب .

وأخذ يهبط فوق المنحدر حتى وصل الى حافة الماء فانحنى فوقه وأخذ يعب بفمه حتى ارتوى . وهم بالصعود ولكنه تذكر أن هناك وعاء جلديا للماء مثبتا بسرج الجواد وخطر له أن يملأه بالماء ليستعين به وقت الحاجة . وملأ خوذته بالماء حتى يفرغها فى الوعاء الجلدى ولكنه لم يكد يصعد الى الطريق حتى كان معظمه قد سكب ولم يكن قد بقى منه سوى قطرات ، ولم ييأس بل أعاد الكرة . واستمر يهبط ويصعد عائدا فى كل مرة ببضعة قطرات حتى ملأ الوعاء ثم ركب الجواد وواصل السير .

وطال به السير حتى وصل الى الميدان فاذا به قد اتسع حتى أضحى

صحراء واسعة مقفرة ولم يعد هناك أثر للنهر ، وأحس بالقيظ يشتد ، وتلفت حوله فلم يجد شيئا يستظل به فأمعن في السير ، حتى لاحت له في الأفق واحة مليئة بالنخيل والأشجار . فاستحث الجواد اليها . وأحس بريقه يجف وبظمئه يشتد ، فهم بأن يبل ريقه من وعاء الماء ، ولكنه خشى أن يجد الواحة سرابا ، وصمم أن يحتفظ بالماء حتى يتبين حقيقتها .

واستمر في السير ، ممسكا الوعاء بحرص ، وقد ضن على نفسه بقطرة ماء منه ، حتى يبلغ هدفه .

وفجأة وجد جواده يجفل ، وتلفت حوله فاذا بجسد امرأة يجثو فوق الرمال ، ولم تكد تحس اقترابه حتى رفعت اليه رأسا أشعث وعينين غائرتين ومدت اليه ذراعيها وهتفت به :

- ماء ، جرعة ماء .

وببساطة ، وبلا أقل تفكير ، مد يده اليها بالوعاء ، وأخذ ينظر اليها وهى ترفعه الى شفتيها وتفرغه في جوفها ، وقد ملأه احساس بالسعادة والهناء ، وكأنه هو نفسه قد ارتوى .

ونظر الى الأفق فاذا بالواحة قد اختفت ولم يعد هو يحس أنه في حاجة اليها ، لقد بلغ مأربه ووصل الى هدفه وليس لديه من حاجة الى السير أبعد من ذلك ؟

ومد يده الى المرأة فرفعها بجواره على الجواد ، وضمها اليه برفق وحنان وأدار جواده وعاد من حيث أتى .

واستيقظ من نومه . ووجد نفسه يذكر الحلم بكل تفاصيله وحذافيره وقد تملكت منه دهشة شديدة ، وأخذ يقصه على أم أحمد في أثناء افطاره ، وهزت المرأة رأسها في استخفاف وقالت :

- أضغاث أحلام ، لا تعد بعد ذلك الى أكل المدمس فى العشاء انه هو الذى أثقل على معدتك .

ولم يعد فعلا الى أكل المدمس فى العشاء . ولكن الحلم عاد فلح عليه فرآه فى الليلة التالية تماما كما رأى فى الأولى .

واستمر يراه الليلة بعد الليلة حتى حل اليوم السادس والعشرين من الشهر ودقت الساعة الثانية عشر وأبصر « نور مثال » تقف أمامه وقفتها فى كل شهر ، ونظر الى وجهها فوجد به بعض الشحوب والهزال وعندما سلمها النقود سألته :

- أأستطيع أن آخذ بضعة شهور مقدما . انى أحس ببعض التعب وقد لا أتمكن من الحضور فى الأشهر التالية . وأنا فى حاجة الى نقود . وبغير أن يفكر وجد نفسه يجيب :

- بالطبع . تستطيعين أن تأخذى مقدما ما تشائين .

كان أبله . عندما أجاب تلك الاجابة . فأى صراف مهما بلغ به الجهل يعرف أنه لا يملك أن يصرف مقدما مليما واحدا . ولكنه مع ذلك مد يده الى الخزينة وسلمها عشرة شهور مقدما . أى سلمها كل ما كان بالخزينة وقتذاك .

وتناولت النقود وأحنت رأسها شاكرة . وقبل أن تنصرف وجدها تتوقف . ويعلو وجهها شحوب مفاجىء ثم سألته بصوت مبحوح :

- ماء . جرعة ماء .

وأحس بقشعريرة تسرى فى جسده . ووجد نفسه دون أن يدرى ينظر الى ملابسه ويدق بقدمه على الأرض .

لا ، لا ، انه مازال يرتدى البدلة ويجلس على المكتب ... بلا جواد ولا

صحراء . ومد يده الى كوب أمامه فناولها اياه ورفعته الى شفتيها وأفرغته في جوفها ثم نظرت شاكرة وأولته ظهرها وانصرفت ، ولم تكد تنصرف حتى أسرع يغلق الخزينة . وانطلق الى البيت . لقد كان عليه أن يرد المبلغ الذى أخذه . وبعد برهة رجع الى المكتب وأعاد الى الخزينة كل ما يملك من احتياطي كان يدخره لوقت الحاجة .

وغادر المكتب مرة أخرى ، وهو يحس أنه قد بات قرير النفس ناعم البال شيئا واحدا كان يجب أن يرده الى السيدة . وهو السركى الذى نسيته فى مكتبه . ولم يصعب عليه العثور على عنوانها . وقبل أن يتناول الغداء كان يطرق باب الغرفة التى تقطن بها فى حمامات القبة .

وفتحت له خادم صغيرة ، وقفت تسأله عمن يكون ، فلما علمت أفسحت له الطريق وأنبأته أن السيدة أصابها اغماء عقب عودتها من الأوقاف فى الظهيرة ، وهى راقدة فى الفراش ولكنه مع ذلك يستطيع رؤيتها فهى تتوقع مجيئه ، وتقدم اليها وقد تملكته رهبة شديدة . فاذا بها مسجاة على فراشها شاحبة الوجه واهنة القوى ، ولم تكد تحس وقع أقدامه حتى فتحت عينيها وأشارت له بالجلوس .

وجلس بجوارها ، ومد يده اليها بالسركى فأشار له أن يضعه على المائدة وقالت فى صوت خافت ، لا أظن بى حاجة اليه بعد ذلك ، لقد تركته لكى تحضره ، ان لابد لى من ذلك ، حتى أراك مرة أخرى قبل أن أرحل ، ولم ينبس ببنت شفة ، لقد بدأ له كأنه فى حلم ، نفس الحلم الذى يراه كل ليلة ، لقد استطاع الآن أن يميز ذلك الوجه الذى كان يسأله الماء ، وعادت المرأة الراقدة تهمس :

– انك تبدو غريبا فى هذه الثياب .. وفى هذا المنظار والطربوش . لقد تعودت أن أراك دائما فوق جوادك بالخوذة والدرع كأنك أحد فرسان العصور

الوسطى ، كنت دائما تأتى لانقاذى ، تبل حرارتى وتندى شفتى ثم ترفعنى اليك وتحملنى على جوادك وتضمنى الى صدرك ، ما أحسست قط فى حياتى بنعمة الاستقرار الا بين ذراعيك ، فقد قضيت كل هذه السنين الطوال فى البؤس والمسغبة . كنت أكاد أتضور جوعا ، حتى من الله علي ببضع جنيهات من الأوقاف ، من كان يصدق هذا ، من كان يصدق انى سأعود مرة أخرى الى قصرنا لأتسلم حسنة ، هل تعرف ان تلك المكاتب التى تجلسون فيها كانت مرتع صباى فى زمن مضى ، أتذكر عندما سألتك أن تمنحنى فيه جولة ، لقد كنت أبصر بعين الماضى ، ما وراء أكوام القمامة والحجارة والأتربة ، كنت أبصر الحديقة الغناء التى طالما لهوت فيها ، والنافورة التى طالما عبثت بمياهها انى أحس بقرب النهاية ويبدو لى أن من الخير أن أعيد اليك النقود التى أخذتها منك . لقد كنت أتمنى أن أسدد بها بعض الديون ، وأن أهيىء لنفسى ميتة كريمة ، ولكنى أخشى أن أضعك فى مأزق وأسبب لك حرجا ، فخذ النقود ، انها تحت الوسادة .

وأغمضت عينيها مرة ثانية ، فرفع يدها الى فمه ومسها بشفتيه وعادت تفتح عينيها ، فهمس فى رفق : لا عليك من بأس ، دعى الأمر لى .

وماتت نور مثال .. وبكاها الرجل بأحر ما بكى .. وهيأ لها ميتة كريمة ، قدر ما استطاع .. ولم يكف عن زيارة قبرها .. ولا عاد ينتظر بعد ذلك زاجا .

بين حي وميت

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

« قرآن كريم »

هل تسمعنى .

تسمعنى أو لا تسمعنى .. لابد لى من الحديث اليك .. انه حديث شماتة .. وليس أحب الى نفس من الشماتة فيك .

أى باعث على الشماتة أكثر من رقدتك وأنت لا شىء .. ووقفتى الموحشة بين الرمم البالية والعظام النخرة والجيف النتنة بلا حراك ولا قوة ولا حول ولا طول ولا جاه ولا سلطان .. ولا .. ولا .. شىء أبداً .

كيف يكون بك شيئا ، وأنت نفسك أصبحت لا شىء .

أى باعث على الشماتة أكثر من رقدتك وأنت لا شىء .. ووقفتى وأنا كل شىء .. أنا حى ، وأنت ميت .

وبين الحى والميت كثير ، كثير ، أكثر مما يمكن حصره .

بين حي وميت

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

« قرآن كريم »

هل تسمعنى .

تسمعنى أو لا تسمعنى .. لابد لى من الحديث اليك .. انه حديث شماتة .. وليس أحب الى نفس من الشماتة فيك .

أى باعث على الشماتة أكثر من رقدتك وأنت لا شىء .. ووقفتى الموحشة بين الرمم البالية والعظام النخرة والجيف النتنة بلا حراك ولا قوة ولا حول ولا طول ولا جاه ولا سلطان .. ولا .. ولا .. شىء أبداً .

كيف يكون بك شيئا ، وأنت نفسك أصبحت لا شىء .

أى باعث على الشماتة أكثر من رقدتك وأنت لا شىء .. ووقفتى وأنا كل شىء .. أنا حى ، وأنت ميت .

وبين الحى والميت كثير ، كثير ، أكثر مما يمكن حصره .

أقف منك على قيد خطوات ، وبينى وبينك من المسافة شيء قليل ، أما من حيث الوقت ، ومن حيث القدرة ، فبيننا مالا يحصى ولا يقدر ، بينى وبينك ، حياة ، مديدة ، طويلة ، حافلة زاخرة ، مورقة ناضرة ، بيني وبينك ، ما بين العيش والفناء ، والخلق والعدم .

انك لا تسستطيع حتى أن تتألم أو تتوجع ، انك لا تملك الا الرقود والاستسلام ، أريق عليك نقمتى فلا تستطيع لها ردا ، وأصب عليك جام غضبى فلا تملك له دفعا ، أيها العاتى الجبار ، أية شماتة أحس بها وأنا انظر اليك ، تتمرغ فى الذلة والعجز والمسكنة وترقد وكلاب الأرض سواء بسواء .

هل تسمعنى ؟ .. لا بد أن تسمعنى ، فلست أريد أن يذهب حديثى بددا ، لن تتم شماتتى فيك وسخريتى منك الا اذا اطلعتك على خبيئة صدرى وأوصلت الى مسامعك حقيقة أمرك وأمرى ، كنت تتصامم فيما مضى عن أنينى وشكواى وأنت العلى القدير ، أما الآن فلتنصت الى شماتتى وأنت الذليل الحقير .

اذا لم تكن تسمعنى وأنت حى ، فلتسمعنى وأنت ميت .

اسمعنى : أيها الجسد الفانى والرمة البالية .

اسمعنى : لا أسمعك الله صوت رحمته ، ولا أسكنكِ الا سعير جحيمه .

اسمعنى . فلطالما تاقت نفسى الى أن تقضى بما سوف أفضى به اليك .

اسمعنى : صاغرا مطيعا ، بلا احتجاج ولا شكوى .

اسمعنى : أنا الحاكم بأمرى فيك ، وفى كل سلطانك وجاهك ومالك الذى كددت فى جمعه ، وشقيت فى تقديسه .

اسمعنى : انا الآمر بطردك من الحياة .

اسمعنى : أنا قاتلك ، ومعدمك ومفنيك .



أدهش أنت من قولى هذا ؟ ساخر أنت منه منكر له ؟

يبدو لى أنك تود الاحتجاج والتكذيب وأنك تستكثر على ، أنا العاجز الأبله ، أن أضع بيدى هذه نهايتك وأن أنهى مصيرك وأقرر خاتمتك ، انك تستكثر من جريمة قتل ، وقتل من ؟ قتلك أنت ، سيد الأشرار ، وشيخ الفجار .

انها مذلة جديدة لك . وعار آخر يلحقك . ان تعلم أنك مت بيدى أنا . وانى أنا طاردك من الحياة . حارمك من نعيمها .

ولكن ألم يسبق لك طردى وحرمانى ؟ . لقد رددت لك الكيل على غير انتظار منك ولا توقع ، واحدة بواحدة ، والبادى أظلم ، والمنتهى أربح ، وأنت البادى وأنا المنتهى ، أنت أكثر ظلما ، وأنا أكثر ربحا .. ما رأيك يا أبتاه ؟ ..

أبتاه ؟ . ها .. ها .. ها ..

دعنى أضحك يا أبتاه ، فما أظن هناك نكتة أروع من أن تكون أنت أبتاه .

ها .. ها .. ها .. يا أبتاه .. يا أبتاه .

أنت أبتاه ؟ والله ما أظن قولى لك يا أبتاه ، الا من باب تسمية الشىء

بضده كما تقول على الزفت بياض وعلى الفارغ المليان .

أنت أبى من باب الزفت والفارغ ، بل ان قلبك لأشد من الزفت سوادا ، ومن الفارغ فراغا . كيف كنت ، وكانت حياتى معك ؟ كيف كانت أبوتك ؟ وكيف كان عطفك وحنانك ، دعنا نتذاكرها سويا ، على سبيل التندر والتسلية .

الديك مانع ؟ لا أظن ، وحتى لو كان لديك ، فما أظنك تستطيع اعلانه فأنت هنا كما ترى ، سميع مطيع ، راضخ ذليل .

أما أنا فلست بمتعجل فراقك . فالوقت أمامى فسيح والحياة طويلة ، ولا بأس من بضع لحظات نتسامر فيها سويا ، أنعم فيها بمناقشتك الحساب ، وأنت الذى طالما ناقشتنى الحساب . وأبيت على الجواب ، انى لأذكرك منذ طفولتى ، ومنذ بدأت الوعى والادراك ، شبح مخيف وظل سمج ثقيل ، بينى وبينك حجاب كثيف من الخوف والرهبة ، اذا حللت بالدار لم أجرؤ على اللعب والحراك ، خشية ازعاجك ، واذا نمت فلابد لى من الانطواء فى الفراش والتناوم حتى لا تقلقك حركتى ، وما أظننى أنكر انك حملتنى بين يديك مرة واحدة ، أو ربت على ، أو لاطفتنى بما يلاطف الآباء بنيهم بل كنت تعتبرنى كقطعة من أثاث الدار .

ولو كانت لى أم ، لما أحسست بمبلغ جفائك وقسوتك ، ولعوضتنى عن اهمالك وهجرك ، ولما نشأت كما نشأت نفورا مستوحشا ، ولما أصبت بذلك الانطواء والخوف من الناس حتى أضحيت بينهم أبلها شاذا .

أجل ، أجل ، انك السبب فى كل ما أصابنى ، وما جعلنى أبدو مخلوقا ، ناقص العقل ، أو نصف آدمى .

انك السبب فى علتى الأولى ، التى جعلتنى أتهم بالبله ، ذلك البله الذى يجعلنى لا أتحكم فى قضاء حاجتى .

أتذكر عندما كنت أرقد فى حجرتى فى الغرفة ذات الشرفة المطلة على الحديقة ، وكنت تأمرنى بأن أرقد وحدى وأنا طفل حتى لا أتعود الجبن ، ولقد تحملت النوم وحدى وقتذاك رغم ما كنت أشعر به من خوف شديد ، ورغم ما كنت أتوهمه من سماع أصوات مخيفة تطرق أرض الشارع وتسير فوق السطوح .

كل هذا كنت أحتمله . ولكن الشيء الذى كنت أعجز عن احتماله هو أن أذهب وحدى الى دورة المياه الكائنة فى الركن الآخر من المنزل عندما أحس برغبة شديدة فى قضاء حاجتى خلال الليل ، ولذلك فقد كنت أذهب الى أم أحمد الخادمة فأوقظها لتصحبنى الى هناك . ولكن حدث ذات مرة أن أيقظك صوت ايقاظى لأم أحمد فهببت من نومك وصحت تسأل عما هناك ، وعندما أنبأتك بجلية الأمر ثارت ثورتك ونهرتنى نهرا شديدا وأمرت أم أحمد بألا تذهب معى وأنبأتنى بأنه يجب على أن أذهب وحدى حتى لا أكون جبانا .. ولم أذهب وحدى بالطبع ، فقد كان هذا فوق استطاعتى ، وفضلت أن أبقى فى الفراش ، وفى الصباح وجدت الفراش مبتلا .

وتعودتها ليلة بعد ليلة ، أكبت حاجتى ليلا ، حتى أفقد السيطرة على نفسى ولم أستطع التخلص من العادة أو قل الداء . حتى نموت ونمت العلة معى واتهمت بالبله .

ذلك وغيره من سوء معاملة وزجر واتهام بالغباء والبله هو بداية ما أنزلت بى فى الصغر وما أهلنى لان أكون بين الصبية ناقصا شاذا ، فلما بلغت سن المراهقة ، وبدأت أدخل فى دور الرجال .. سددت الى ضربة لو أن أشد أعداء صبى مراهق فى مثل سنى رغب فى القضاء عليه لما سدد اليها مثلها .

لقد بدأتهابزواجك ..

وحاشاى أن أنكر حقك فى الزواج .. وحاشاى أيضا أن أزعم انى كنت

أتوقع من امرأتك عطفا أو حنانا أو حسن معاملة .. حاشاى أن أكون حسن الظن الى هذا الحد .. لقد تقبلت زواجك كضرر لابد منه .. واعتبرته حلقة من سلسلة حياتى المثقلة بالهموم .

ولكنى لم أكد أتوقع قط .. أن يكون ضربة قاصمة لى .. أو أن تكون الضربة من مثل هذا النوع السخيف المشين .

ترى بأى شىء أعلل تصرفك .. أو تصرفكما أنت وزوجتك معى ؟

أكنت مجنونا .. أم جاهلا .. أم أحمق .. أم خبيثا .. أم شيطانا رجيما ؟

أن كل سوء ارتكبته معى يمكن تعليله وارجاعه الى ناحية معينة من سوء خلقك .. فحرمانك لى وأنت الغنى المقتدر .. يرجع الى بخلك .. وقسوتك على وزجرك لى .. قد يمكن تعليله بصرامة طبيعتك وشدة قسوتك .. واهانتك وضربك اياى قد يعلل برغبتك فى اصلاحى وبسوء فهمك لأصول التربية والاصلاح .. وكل شىء .. كل شىء .. يمكن ارجاعه الى علة معينة .. مهما كانت خاطئة .. ولكن أية علة يمكنك أن ترجع اليها .. اغرائى بزوجتك .. واغرائها لى ..

ألم يكفك ذلك الاغراء الصارخ .. فى جسدها .. حتى تفتعل معها أوضاع الاغراء .. وأنت الرجل الجاد الصارم .

ألم يكفك انك تزوجتها هى بالذات .. وهى أبعد ما تكون عن ملاءمتك سنا وطبعا . أنت الكهل الصارم الجاد .. وهى الشابة المتعطشة الفائرة التى تتفجر أنوثة ورغبة ..

ألم يكفك أن تسلط على سطوة اغرائها الطبيعى .. حتى تتعاون معها على الايقاع بى وتحطيمى ، انى عندما أفكر فى هدوء .. يبدو لى أنك كنت ألعوبة فى يدها .. ولكن أين عقلك .. وكيف يصل بك البله الى الحد الذى

تغمض عينيك عن تأثير ذلك الاغراء فى .. فتنساق معها وتجاريها ؟

لقد كانت خطة محكمة موضوعة لاثارتى واغرائى وتمزيق أعصابى وتحطيم قواى واطاشة صوابى ، وقيادتى الى الجنون ، ولقد أفلحت الخطة ، أو كادت ، لولا أن أنقذت نفسى وأوديت بك .

بدأت الخطة .. بعرض منها لفتنة جسدها .. عرضا يبدو غير مقصود .. وان كنت أقسم أنها كانت تعنى منه كل حركة .

كان لا يحلو لها الانحناء الا أمامى .. وهى ترتدى قميصا متسع فتحة الصدر .. وأنت تعرف صدرها المكتز وثدييها الممتلئين .. فلا تكاد تنحنى حتى تتسع فتحة القميص ويسقط ثدياها الثقيلان ككراكتين من العجين . وأحس بريقى يجف وبالدم يتصاعد الى وجهى ولا أملك الا الفرار وأنا ألهث اضطرابا ونشوة .

أما جلستها فقد كانت تحكمها فوق الأريكة ، ثانية احدى ساقيها تحت ردفها ، ثانية الساق الأخرى وركبتها الى أعلى بحيث أستطيع أن أبصر بسهولة باطن فخذيها حتى حافة السروال المشغول بالتنتنة .

وهكذا بدأ الهجوم بعرض الأوضاع .. الفاتنة الفاتكة .. ثم أخذ يتدرج .. باشتراكك معها .. فى فتنتى واغرائى ..

كنت أستيقظ فى الصباح فأسمعك تنادينى من حجرتك طالبا كوب ماء .. تنادينى أنا وحدى .. دون سائر الخدم .. فلا أكاد أدخل عليك بالكوب حتى أفاجأ بك فى الفراش وهى فى أحضانك وقد تبعثرت ثيابها الداخلية على الأرض .. مفسرة قطعة قطعة ، فلا أكاد أغادر الحجرة .. حتى آخذ فى تصور كل شىء . أكنت تظننى طفلا .. أم أبله .. أم كنت تعنى تدميرى ؟

لقد كانت تدخل الحمام لتستحم .. فلا تكاد تمضى بضع دقائق حتى

تصفق بيديها فى طلب حاجة .. لوفة .. أو صابونة أو قطعة من الملابس .. فاذا لم تجبها الخادمة .. أمرتنى زجرا بأن أذهب لأعطيها ما تطلب . وأقف على باب الحمام أطرقه وجلا ، فاذا بها تأمرنى بالدخول ، فأدخل لأجدها عارية تماما وقد جلست على كرسى الحمام وأخذت تصب الماء على جسدها البض المتكنز ، وتمديدها فتأخذ الثياب ، وأخرج بعد ذلك ملوما محسورا ..

تلك هى سلسلة التعذيب التى كانت تحطم أعصابى وتطيش لبى ..

ولم يكن أمامى سوى مسلك واحد أندفع فيه .. وهو المسلك الذى يندفع اليه الصبية فى دور المراهقة .. وكان اندفاعا جنونيا ، لا يخطر على عقل بشر .. حتى صرت كما أنا الآن .. حطام ذهن وبقايا جسد ..

وكان الشيطان كثيرا ما يهيىء لى أن أقدم عليها .. وأن أندفع فأقضى منها بغيتى .. ولم يكن يبدو لى أن ذلك يغضبها أو أنها تمانع فى ذلك .. ولكننى كنت أخشاك .. كنت أخافك جدا .. فقد كنت أراك عاتيا جبارا .

وهكذا وجدتك حائلا بينى وبينها ، بل بينى وبين كل شىء ، وكلما ازداد الاغراء ، ازدادت الرغبة ، وازداد كرهى لك ، حتى استقر بى ذهنى المجنون على أن أزيحك من طريقى ..

ولم أكن أعرف كيف أدبر الأمر .. بحيث لا تحوم حولى شبهة وبحيث أستطيع أن أتمتع بحياتى وحريتى وبمالك وامرأتك .

ومر بذهنى خاطر خيل الى أنه قد ينيلنى بغيتى وصممت على أن أجربه .. وكنت فى حاجة الى مساعدة الأقدار .. فقدمت الى المساعدة وليس أسهل على الأقدار من المساعدة فى الشر والجرم .

كانت الخطة غاية البساطة ، فقد كنت تعود الى المنزل ليلا وكان عليك دائما أن تعبر الممر الكائن بين باب الحديقة وباب المنزل . وكان يتوسط هذا

الممر فتحة « بكابورت » ولم يكن على الا أن ارفع غطاء الفتحة وأنزل المصباح الكهربائى الذى يضىء الممر ، وأترك الباقى للأقدار .. فقد تساعدنى .. على التخلص منك .

وأنت أدرى بما حدث .. أدرى بعودتك ومحاولتك اضاءة المصباح وبسيرك وسقوطك فى الفتحة ومساعدة الأقدار لى بتهشيم رأسك وموتك فى التو والحين ..

أدرى بحملك وتغسيلك وتكفينك ..
أدرى بوضعك فى النعش والصلاة عليك ..
أدرى بوقوفى مطلق السراح أتقبل عزاء الناس فيك .

وسرت وراء النعش حتى المقبرة ورأيت اللحاد يزيح الأتربة ويرفع الحجارة عن مدخل القبر وأخذ يرش المياه حوله بقربة وراء ظهره .. ووقفت أرقب المقرئين يهتزون يمنة ويسره وهم يستمطرون عليك شآبيب الرحمة .

وأخيرا .. انتهى كل هذا .. وهبطوا بجسدك الى قرار القبر ورصوا على فتحة الحجارة المستطيلة وهالوا عليها الثرى .

ورحل الجميع ورحلت معهم .. ولكننى تسللت من بينهم وعدت اليك .. وسط الظلمة وقفت أرفع الثرى وأزيح الحجارة ثم أدلى بجسدى فى المقبرة وأهبط اليك .. لأفضى اليك بخبيئة صدرى وأشرح لك ما خفى من أمرك وأمرى .

أيها الجبار العاتى .. ما عاد جبروتك يخيفنى .. سأصعد الآن .. وأذهب آمنا مطمئنا .. أتدرى الى من ؟

الى امرأتك .. الغضة البضة .. الطرية اللدنة .. انى أصبحت صاحب المال والحول والطول .. صاحب كل ما تركت ..

سأنام معها فى نفس فراشك .. وسأتمتع بمنظر ثيابها الداخلية .. مبعثرة فى أرض الحجرة .. اتسمعنى .. انها قد أضحت ملكى ..

لتذهب الى الجحيم .. أما أنا فانى صاعد الى ظهر الأرض صاعد الى الحياة والنعيم .

ولكن ما هذه الظلمة التى تحيط بى .. انى لا أستطيع أن أتلمس طريقى .. لقد كان ثمة ضوء ينفذ الى من الفتحة التى دخلت منها .

ويحى .. انى لا أجد الفتحة .. لقد كانت هنا .. كنت أرى منها السماء وضوء النجوم .

أين ذهبت .. لقد سدت ..

أجل سدت .. لقد عادت الحجارة الى مكانها وانهال عليها التراب .. افتحوا .. أيها السفلة .. المجرمين .. افتحوا انى أريد أن أذهب الى الحياة .. والى النعيم .

آه .. أيها الشرير .. انك أنت الذى أغلقت القبر على لأشاركك نومتك .. ولكن لا .. لا .. لابد أن أصعد .. والا لأمزقن جسدك شر ممزق .

أجل .. انك عاجز .. وأنا صاحب قدرة ان بيننا فارقا كبيرا .. بيننا حياة طويلة مديدة . انك تحت رحمتى وتحت سطوتى .

افتحوا هذا القبر .. افتحوا فأنا حى .. افتحوا .. افتحوا .. فبينى وبين هذا الميت فرق شاسع من الوقت والقدرة ..

افتحوا .. افتحوا .. أيها المجانين .. أنا حى .. أنا حى .. لا تتركونى له .. أخرجونى .. أخرجونى ..

★ ★ ★

وفى تلك اللحظة .. كان اللحاد يرقد على فراشه العتيق فى كوخه اليالى وسط المقابر .. وكان صبيه يرقد بجواره وهمس الفتى فى تكاسل :

يخيل لى أنى أسمع صوت صراخ ألا تسمع شيئا .

- نم .. نم لست أسمع شيئا ؟

- لقد وجدت المقبرة التى وضعنا فيها الميت اليوم مفتوحة فأعدت الحجر الذى نزع الى مكانه .

- قد يكون أحد اللصوص فتحها ليسرق الكفن .. نم .. نم .. كفى ثرثرة .

وأغمض اللحاد عينيه وأخذ الصوت يتضاءل شيئا فشيئا حتى خفت تماما . وهكذا لحق الابن بأبيه .. وسوى العاجز مع القدير .. وصاحب الرمة مع صاحب العمر الطويل .

ياللوقت ويا للقدر ..

ياللوقت الذاهب فى غمضة عين .. وياللقدرة الضائعة بين عظام نخرة فى قبر بقفرة .

بلا عودة

﴿ الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلواة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ .

« قرآن كريم »

هذه قصة حياة امرأة وقعت خاتمتها فى أيامنا هذه ، أما البداية فحدثت فى زمن غبر وعهد مضى .

ولشد ما أنا حائر فى سرد قصتها ، كيف أحشرها فى بضع صفحات ، وهى تاريخ كامل لجيل بأسره ؟

لنبدأ من البداية الأولى . منذ مولدها فى عام ١٨٨٠ ، نعود القهقرى سبعين عاما الى حى المغربلين حيث كانت تقوم قصور الأعيان والتجار وأثرياء الأتراك ، فندلف فى أحد القصور لنشهد مولدها من أب مصرى وأم تركية ..

كان أبوها الحاج محمود العطار ، رجلا من كبار تجار العطارة ،

بلا عودة

﴿ الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلواة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ .

« قرآن كريم »

هذه قصة حياة امرأة وقعت خاتمتها فى أيامنا هذه ، أما البداية فحدثت فى زمن غبر وعهد مضى .

ولشد ما أنا حائر فى سرد قصتها ، كيف أحشرها فى بضع صفحات ، وهى تاريخ كامل لجيل بأسره ؟

لنبدأ من البداية الأولى . منذ مولدها فى عام ١٨٨٠ ، نعود القهقرى سبعين عاما الى حى المغربلين حيث كانت تقوم قصور الأعيان والتجار وأثرياء الأتراك ، فندلف فى أحد القصور لنشهد مولدها من أب مصرى وأم تركية ..

كان أبوها الحاج محمود العطار ، رجلا من كبار تجار العطارة ،

وكانت أمها امرأة جميلة من عائلة تركية عريقة النسب .

ولدت « أميرة » .. لتجد نفسها محاطة بكل مظاهر العز والثراء ، وريثة جاه عريض ومال وفير من الأب ووريثة جمال وكبرياء ودم ارستقراطى وأصل عريق من الأم .

ولا أظن الوقت يتسع لكى نتتبع طفولتها وصباها ، على مقل ولكى نخوض فى تفاصيل حياتها ، ولكن كل ما يمهنا نكره هو وفاة أبيها بعد بضع سنوات من ولادتها وقبل أن تفهم هى ماهو الموت وما هو الحزن ..

وشبت الفتاة وفى دمها الكبرياء والسيادة .. محوطة بجمهرة من الخدم والحشم ، تأمر فتطاع ، وتشير فلا تلقى سوى الانحناءات والاحترامات . ومنذ الطفولة كانت لها شخصيتها المسيطرة ، وكانت - وهى طفلة - اذا حدث ما يسبب لها البكاء ، مما يحدث لكل الأطفال ، تخجل من البكاء أمام الناس ، فتكبت مشاعرها . وتكتم صراخها ودموعها حتى تخلو الى نفسها ، وتتأكد من أنه لم يعد هناك من يراها ، ثم تطلق لدموعها العنان ..

كانت الطفلة أميرة ، أميرة بحق ، فى مشيتها ، وفى حديثها مع الناس ، وفى أوامرها للخدم وفى اصرارها على رأيها ، ولم تكن تغفر لأحد أن يتصرف معها تصرفا غير لائق بشخصها .

حدث ذات مرة فى خلال حديث لأمها مع أحد أقاربها - وهو رجل كبير محترم - أن قال الرجل عنها - البنت - فلم يكن من الطفلة الصغيرة الا أن قاطعته غاضبة :

- يجب أن تتعلم كيف تتحدث عن سادة القوم .

وهكذا كانت تحس دائما أنها من السادة ، وأن لها كرامتها التى يجب ألا تمس ، وكبريائها التى يجب ألا تخدش .

ونعدو مع الزمن عشرين عاما ، لنجد أميرة فى نهايتها وقد أضحت شابة فى أوج جمالها ونضرتها .. جمال هو خليط من الجمال المصرى والتركي .. شعر أسود كحلكة الليل ينساب على كتفيها وينبسط على ظهرها ، ووجه أبيض ناصع دقيق التقاطيع حلو الملامح ، وعينان زرقاوان صافيتان ، تكونان مع سواد شعرها مفارقه ينبعث منها سحر عجيب ، وأنف دقيق مرفوع الطرف . وجسد أهيف وقد ممشوق يبدو عليه القوة والتماسك .

ووقفت الفتاة تتطلع الى المستقبل وملء نفسها الثقة والأمل ، وقد زودتها الحياة بأمضى أسلحتها : الفتنة والجمال والثراء الوفير .

ولاح فى الأفق الزوج المنشود ، وتوأم النفس وشريك الحياة ، توأم مثالى ، وشريك نموذجى ، يلائم ما حف بالفتاة من جمال وامارة وسلطان ، وما حبتها به الدنيا من حظ سعيد .

وتقدم لخطبتها السيد محمود صديق ابن المرحوم صديق باشا صاحب أبيها الوفى وصديقه الحميم ، ولم يكن الفتى ليقل عنها حظا من الحياة ، فقد كان وحيد أبيه الراحل ، ووارث جاهه وماله وطيب أصله وكرم محتده ، وكان الفتى نبيل الخلق جميل المظهر فطنا ذكيا ، وكان - بغير مال أبيه - شخصية لها مكانتها واحترامها فى المجتمع المحيط . وتمت الخطبة وتوثقت عرى الحب بين العروسين وأخذا يستعدان للزفاف .. وسار الزورق ينساب فى هدوء واسترسال بلا أنواء ولا موج ولا رياح هوج ، ولا يشتم فى الجو رائحة غبار ولا يبدو فى الأفق أثر سحاب .. بل كان ما هنالك صحو فى صحو وصفاء فى صفاء ..

وحدد موعد الزفاف .. وكان القدر أوشك أن يفرغ من نقش أبدع لوحاته ، وينتهى من تسطير أهنأ أقاصيصه ، ويختمها أسعد خاتمة .. ووقفت أميرة (هانم) فى غرفة نومها وسط الحائكات تقيس ثوب الزفاف الدانتلا

الأبيض وتدور بكبرياء أمام المرآة ، وعلى أحد الأرائك جلست أمها ترقبها في عطف وحنان واغرورقت عيناها وهي تقول لها .. مبروك يا أميرة .

وتتمنى بينها وبين نفسها لو كان أبوها حيا ليرى أميرته الرائعة .

ولا تكاد الفتاة ترد تهنئة أمها حتى يسمع صوت وقوف عربة وصهيل جياد وطرق على الباب الخارجي ..

وتتحرك أميرة وعليها ثوب الزفاف فتقف وراء المشربية لترقب الطارق من خلال الثقوب الخشبية ، ثم تقول وهى تتجه الى باب الغرفة .. انه « عم على » خادم محمود ، ماذا أتى به ياترى ؟

وأقبلت احدى الخادمات لتقول ان « عم على » يريد رؤية الست الكبيرة ، فتصيح بها أميرة في لهجتها الآمرة .. دعيه يصعد .

ويصعد عم على بجسده المنحنى وذقنه البيضاء المسترسلة ، وقد تثاقلت خطواته وتلاحقت أنفاسه ..

ووقف أمام السيدتين كأنه كلب يلهث ثم همس بصوت مبحوح :

أريد أن أقول شيئا للسيدة الكبيرة .

ويلوح في عينيه احمرار وارغوراق ، ويسود الجو سكون مخيف يقطعه صوت أميرة حادا قاطعا :

- قل ما تريد قوله ، انى لا أخشى سماعه ، ماذا حدث لسيدك ؟

وينطق الرجل :

سيدى محمود بك .. الله يرحمه ..

ثم يخر متهاويا على الأرض وهكذا ينهى القدر لوحته فجأة .. فيجرى عليها بفرشاته في عبث الأطفال .. مفسدا كل ما رسم ، ويختم أقصوصته

ساكبا المحبرة على كل ما كتب .

ويندفع القوم فى بكاء ونحيب وولولة ، الا مخلوقة واحدة لم تجد عينها بدمعة واحدة ولم يختلج وجهها ببادرة حزن .. وهى أميرة فقد وقفت شاحبة الوجه جامدة العينين شاردة البصر ، كأن الأمر لا يعنيها ، لم تقبل أميرة تعزية ولا رثاء ، وصرفت عنها القلوب الواجفة والنفوس المليئة بالحزن الفياضة بالعطف والحنان وأمرتهم أن ينصرفوا الى أعمالهم ، وأن يدعوها وشأنها ، حتى أمها أبت أن تتلقى منها كلمة عزاء وانصرف الجميع ولم يبق فى الحجرة الا هى والخادم العجوز الذى حطمته الفاجعة ، ووقفت تسأله فى لهجة هادئة عن التفاصيل .

ولم يكن هناك تفاصيل ، فلقد حدث كل شىء بغتة على غير ترقب ولا انتظار ، كما قال الخادم بصوته المتهدج المتقطع :

- لقد عاد قبل الظهر وكانت تبدو عليه آيات الصحة والهناء وأنبأنى أن الليلة هى ليلة الزفاف وأنه أعد كل شىء حتى تذكرتى السفر الى الأقصر - حيث تنويان أن تقضيا شهر العسل - قد ابتاعهما وحجز ديوانا خاصا ، وطلب منى أن أشرف على الاصلاحات التى تجرى بقصر الحلمية ، الذى ستقطنان به بعد عودتكما من الأقصر وقال لى انه يريد أن يجد القصر معدا عند عودته ، وأننى مسئول أمامه عن أى تقصير ، ثم ذهب الى حجرة نومه ليستريح وفى الساعة الرابعة سمعت تأوها يصل الى أذنى من حجرته ، وتملكنى العجب ! وأسرعت الى الحجرة فوجدته مضطجعا على احدى الأرائك وقد شحب وجهه وبردت أطرافه ، وتلاحقت أنفاسه ، كأنه مكروب الصدر أو كأن هناك من يطبق على عنقه .. وسألته عما به .. وهممت بالخروج كى استدعى طبيبا ، ولكنه أمرنى بصوته الخافت أن أبقى ، وهز رأسه قائلا : «لا فائدة» . ثم طلب منى أن أحمل اليك هذا الخاتم وهاتين التذكرتين اللتين ابتاعهما للذهاب الى الأقصر ، وأنبأنى أن أستمر فى اعداد بيت الحلمية لأنه سيتركه لك بكل ما

فيه .. لقد كان يعده لك .. وسيظل لك وبعد لحظات أسلم الروح بين يدى ، وانتهى كل شيء .

وانصرف الخادم ، وآوت العروس الى حجرتها أخيرا .

لقد كانت الضربة قاصمة ، والمصاب فادحا أليما ، وبدا لها أن الأمر كله لا يعدو حلما مروعا ، أو وهما مخيفا .

لقد هزأ بها القدر وسخر منها ، وجعلها تأمن له ثم طعنها طعنة نجلاء لكى يذل كبرياءها ، ويمرغ أنفها فى الثرى .

ولكنها لن ترضخ ولن تذل ولن تهون ..

لقد جلست فى حجرتها وأخرجت من قمطر بها صورة لعريسها الراحل ، وأخذت تتأملها فى صمت .

لقد كانت فى طفولتها تخجل من البكاء أمام الناس ، وكانت تعدو الى حجرتها وتخلو الى نفسها ثم تندفع فى البكاء منفسة عن كربها .. والآن وقد أصيبت فى الصميم ، وحرمت من رفيق العمر وتوأم النفس . وبعد أن حاولت جهدها أن تتماسك أمام الناس وتتجلد ، ألا تبيح لنفسها فترة بكاء تطفىء بها حرقة الفؤاد وتهدىء بها لوعة النفس ، وهى وحيدة فى غرفتها ، لا يرقبها أحد .

أم أن القدر ، الشامت الساخر ، يرقبها متلهفا ليرى كبرياءها تذل ، ويراها تترنح كالذبيحة .

لا ، لا .. يجب ألا تستسلم أو تخفض الرأس يجب أن تقاوم وتظل مرفوعة الهامة ، ولا تدع شيئا يحطم كبرياءها .

وأمسكت بالصورة تحدق فيها وقد شرد بها الذهن وأخذت تهمس ..

سأتصبر على فراقك وأتجلد ، لا أظننى سأجد صعوبة فى ذلك ، فاننى لا أشعر قط أن هناك من يستطيع التفرقة بيننا ، حتى ولا الموت ، انى لن أشعر بفقدك أو غيابك ، فأنت دائما معى ، فى قلبى وفى ذهنى .. ستبقى أنت كما أنت ، لن تغيب عنى لحظة واحدة ، ولكنى أحس بالحزن يفتت قلبى من أجلك أنت ، لا من أجلى .. من أجل هذا الشباب النضير والحياة المتدفقة .. من أجل آمالك الحلوة ، وأمانيك التى لا حد لها .. كيف يطوى كل هذا فى حفرة مظلمة ؟ كيف يغلق القبر على ضحكاتك الرنانة وصوتك المرح ؟ كيف تحرم من الحياة ومن النعيم ؟ كيف تصم أذنيك عن الألحان العذبة والأنغام الجميلة ؟ وكيف تغلق عينيك عن خضرة الروض ونضرة الزهر وصفو السماء وضوء القمر ؟ ما قيمة كل هذا ان لم تسمعه أذناك وتبصره عيناك ؟ ذلك هو ما روعنى ، وحطم قلبى ، ذلك هو ما ملأ نفسى لوعة وأسى ، من أجلك أنت ، لا من أجل نفسى .. أود أن أبكى ، ولكنى لن أبكى ، لن أذرف دمعة واحدة .. سأتجلد على فراقك حتى نلتقى ثانية .

وكانت الفتاة عن وعدها ، فما صاحت وما ناحت ، وما ابتلت مآقيها ، بل كانت كعود يابس أو جلمود صخر .

ودهش أهل الدار عندما أنبأتهم بعد بضعة أيام برغبتها فى الانتقال – وحدها – الى بيت الحلمية ، الذى خلفه لها زوجها الراحل .. وذهلت أمها ، وقالت لها وكأنها تخاطب انسانا به جنة :

– كيف تفعلين هذا ؟ ماذا يقول الناس عنك ؟ فتاة مثلك تعيش وحدها فى قصر متسع كهذا ، وقصر من .. ؟ قصر زوجك الذى ما زال جسده دافئا فى قبره ، كيف تحتملين البقاء فيه ؟

ومع ذلك فلم يجد معها نقاش ولم يفد معها نصح .. فقد انتقلت الى البيت الذى كان مفروضا أن تعيش فيه مع زوجها ، وجعلت كل شىء فيه كما كان

يجب أن يكون ، كأن صاحبه وصاحبها لم يفارق الحياة ولم يطوه باطن الأرض .

وفتح البيت على مصراعيه وهيىء بما يلزمه من خدم وحشم وعربات وسياس ، ولم تنطو أميرة فى داخله ، بل ملأته بالحركة والحياة ، والولائم والاجتماعات والدعوات .. وأخذت تصرف عن بذخ .. وتبرز فى المجتمع .

وأحاطتها الاشاعات والتقولات .. ولدغتها السنة السوء .. فمن قائل أنها تستغل القصر والمظاهر للحصول على زوج من الأمراء ، ومن قائل أنها تهدف الى مطامع سياسية ، ومن قائل أن بينها وبين فلان أو علان علاقات خفية ، الى غير ذلك مما كان لابد أن تتعرض له وقد فعلت ما فعلت .

ومع ذلك ما لبثت الاشاعات أن تآكلت وانقرضت عندما قرعتها الحقائق الجلية ، وعندما تقدم لخطبتها بعض الراغبين فى ثراء جاهز ، وقصر معد ، وحياة هينة لينة ، ولكنها صدتهم الواحد بعد الآخر ، وأفهمتهم أنها لن تتزوج أبدا .

وخرست ألسنة السوء ، عندما وجدوا أن نشاط المرأة قد بدا يغزو نواحى الخير والاصلاح ، وأنها أخذت تكرس جهودها وأموالها وتستغل اجتماعاتها وولائمها وصلاتها بكبار القوم فى انشاء الملاجىء وعمل المنشآت الخيرية لمعاونة الفقراء .

وأخذت بعد ذلك تصدر مجلة تطالب فيها بحق المرأة ورفع الحجاب ، وأخذت جهودها تبرز فى المجتمع .

وهكذا شغلت المرأة بحياتها العامة الحافلة ، ولكن اندماجها بين الناس ونزولها الى ميدان الكفاح والجهاد لم يستطيعا أن يخففا من حدة كبريائها وأنفتها وميلها الى مظاهر الارستقراطية والسيطرة والعظمة ، واستمرت فى حياتها فى البيت أميرة ، تحافظ على المظاهر والتقاليد ، وتجبر الخدم على خفض

الرؤوس وحنى الظهور والتقهقر أمامها بوجوههم .

ومرت السنون ، وأميرة هانم ممعنة فى حياتها المجاهدة ، ولست أنوى أن أسرد تاريخها الحافل فى خمسين عاما ، فهو تاريخ أمة ، ومن العبث أن أحاول - كما سبق القول - حشره فى بضع صفحات .

لندعها تحيا حياتها ، بين الجمعيات الخيرية ومشروعات البر وعمل المستشفيات والملاجىء ، ولندعها تخوض غمار الثورة المصرية وتشترك فى كل جهاد ، ولندع السنين تعدو حثيثات سراعا بحروبها وسلامها ، وثوراتها وتقلباتها ، حتى نقف أخيرا فى عام خلا لنبحث فيه عن أميرة هانم ..

انها الآن فى العام السبعين ، مازالت تقطن فى قصرها فى حى الحلمية .. حياتها كما هى ، كأن الزمن ما مر بها وكأن السنين ما ولت . تعيش فى قصرها القديم كأنها من أهل الكهف ، لم تحس بتغير الدنيا بل يخيل لها أنها لم تلبث بها سوى يوم أو بعض يوم ..

« وكلبها باسط ذراعيه بالوصيد ، ولم يكن كلبها سوى عم على خادم محمود العتيد وقد بلغ نيفا ومائة عام ، وما زال يتخذ مجلسه بجوار الباب كالكلب الأمين .

أما بقية الخدم فهم هم . لم يتغير منهم واحد ، تقدم بهم الزمن وهم فى الدار كأنهم أشجار فى الحديقة ، وقد أحبوا سيدتهم رغم امارتها وقسوة كلامها .. لم يشذ منهم أحد ، كانوا كلهم سواسية من أهل الكهف نموا معا دون أن يشعروا بالزمن ، ودون أن يشعر أحد منهم بتغير صاحبه .

عم بخيت الطاهى ، وجرمون سائق الحنطور ، وبخيت السائس وسعيد البستانى ، وهانم وأم نجية وزهرة والجارية وعديلة هؤلاء كانوا طقم الخدم الذى يتولى العناية بربة الكهف ، وأضحى القصر بأهله الارستقراطيين نشازا فى حى الحلمية الذى انحدر به الزمن فلم يعد أهلا لتلك الارستقراطية .. وقام

بجوار القصر بيوت متواضعة وحوانيت كان بينها مبيض النحاس والطعمجى وبائع اللب وعصير القصب ، التى لم تكن تتناسب قط مع أميرة هانم وعربتها المطهمة وجرمون وثيابه الأثرية المزركشة .

وخف نشاط السيدة فى المجتمع ، فقد تبدد مالها وضاع جهدها ، ولم تعد تقوى على الخروج الا لماما ، وقصرت نشاطها داخل الدار .

وشكت أم نجية ، وهى خادمتها الخاصة من ألم فى الظهر فأمرتها السيدة بأن ترقد فى فراشها ، ولكن أم نجية التى لم تتخلف قط عن سيدتها منذ خمسين عاما أبت الرقاد .. فصاحت بها السيدة غاضبة ان أوامرها يجب أن تنفذ .. رقدت أم نجية . وعلم الخدم فى الصباح أنها هى التى سهرت على خدمة أم نجية فى تلك الليلة .

وأبلت الخادم بعد بضعة أيام ، ولاحظ الخدم شحوبا على وجه السيدة ، وأخذ يقلقهم منها نوبات سعال شديد تصيبها بين آونة وأخرى .

واستمرت السيدة فى حركتها الدائبة داخل الدار وخارجها ، واستمر الشحوب والسعال فى الازدياد حتى تشاور الخدم فيما بينهم وصمموا على أن يطلبوا من السيدة الرقاد .. ويعلنوها بعزمهم على احضار طبيب ..

وتطوعت أم نجية لتبليغ القرار ، وقالت لسيدتها وقد انهمكت فى عمل بعض صديريات من الصوف لاحدى المبرات :

- يجب أن ترقدى ياسيدتى ، فأنت فى حاجة الى الراحة ..
- من قال هذا ؟ انى فى تمام صحتى .
- ولكن ..
- ليس هناك « لكن » اذهبى لعملك .
- ولكن رقدت فى الفراش عندما امرتنى بالرقاد ..
- لأن الخادمة يجب أن تستمع لأمر سيدتها .

وانصرفت أم نجية بخيبة رجائها ، وأخذ الخدم يهزون رؤوسهم اسفا ويأسا .

وفى المساء دخلت السيدة الى حجرتها ، وقبل أن تأوى الى فراشها فتحت قمطرا ، وأخرجت منه صورة عتيقة صفراء وأخذت تحدق فيها برهة ثم نظرت الى المرآة ، وأخذت تقلب البصر بين الصورتين ، صورة الشاب الملىء بالقوة والحياة ، وصورتها التى تبدو فى المرآة بيضاء الشعر مجعدة الوجه معروقته ، وقد أودى الزمن بكل ما كان بها من نضارة وازدهار فبدت كالورق الجاف . وهمست المرآة قائلة :

- آه لو كنت أعلم ، ما حزنت من أجلك قط ، لقد نجوت بنفسك من سلطان الزمن ، وخرجت عن دائرة نفوذه ، انه لم يعد له عليك سيطرة ولا تأثير .

ما أجهلنى وقد ظننت انك حرمت متع الحياة .. أفى الحياة متع أم « تعب كلها الحياة » وشقاء وتعاسة وجهد ضائع ؟

انك ما حرمت الا من التعب ، لقد وفرت على نفسك مشقة عدو السنين وعدوها وراءك ، بعد حين سأخرج كما خرجت ، سنتساوى فى النهاية ، وان لم نتساو فى طريقة الوصول . لقد خرجت سليما معافى .. وسأخرج محطمة مهدمة مكدودة منهوكة .. آه لو علمت لحسدتك على الموت .

وضعت شفتيها على الصورة ثم همست :
- أتسمح لشفتى الجافتين أن تمسا شفتيك النضرتين ، أيمكن ان تحتمل تجاعيد وجهى ، أيمكن أن تغفر لى ما فعل بى الزمن وما جلبته السنون . ثم أعادت الصورة الى القمطر وآوت الى فراشها .

وفى الصباح ذهل الخدم عندما أنبأتهم سيدتهم بأنها مسافرة ، وطلبت

من أم نجية أن تعد لها الحقائب لسفر طويل .

وانهمر الدمع من عينى أم نجية وقالت متوسلة :

- انك لا تستطيعين السفر يجب أن ترقدى ياسيدتى .

وصاحت بها السيدة فى لهجة آمرة :

- عجبا ، منذ متى ترفضين اطاعة الأمر ؟ انبئى جرمون بأن يعد العربة للذهاب ، وأن يسأل لى عن موعد القطار الذاهب الى الصعيد ولم تجد الخادمة بدا من تنفيذ الأمر ، وعادت تسألها عمن تريد أن يسافر معها من الخدم فأجابت باقتضاب :

- سأسافر وحدى .

ولم يكن هناك فائدة فى المناقشة ، وفى الساعة الثالثة شاهد أهل الحوانيت المجاورة للقصر ، جرمون يرتدى حلته الرسمية ، وتحركت العربة تحمل السيدة العجوز ووراءها عربة أخرى تحمل الحقائب وبعض الخدم . ووصل الموكب الى المحطة ، وكان منظره غريبا على روادها ، وأخذ الناس يحملقون فى السيدة العجوز المديدة القامة المرفوعة الرأس ووراءها السائق العجوز بحلته المزركشة بالقصب وبضعة خدم عجائز يهرولون حولها ويفسحون لها الطريق .

ودلفت السيدة من الباب الحديدى المؤدى الى القطار وحولها الموكب العجيب والحارس الذى يرى التذاكر مأخوذ مشدوه ، وعندما ابتعدوا عن الباب التفت اليه جرمون ثم همس فى أذن السيدة منكرا .

- سيدتى : انك لم تبتاعى تذكرة .

ونظرت اليه السيدة نظرة زجر وتأنيب جعلته يطرق برأسه ويخلد الى

الصمت .. واقتربت من عربة الدرجة الأولى ، ورفعت قدمها لتضعها على درج الباب .

وفجأة ترنحت السيدة ثم تهاوت على الأرض جثة لا حراك بها . واندفع اليها الخدم باكين مولولين ، وحمل أحدهم حقيبة يدها التى سقطت منها، وقد فتحت وتناثرت محتوياتها . وأخذ فى جمعها لاعادتها الى الحقيبة وكان ضمنها صورة لشاب فى مقتبل العمر ، وخاتم ، وتذكرتين للذهاب الى الأقصر بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٠٥ .

لقد دفع السيدة الى الرحيل حنين لا يقاوم .. وهى لم تنس التذاكر ، وان كانت رحلتها تعدت الأقصر ، الى السماء ، رحلة ذهاب بلا اياب ، حيث لقاء التوأم الراحل مؤكد مضمون - ترى كيف يكون اللقاء أترى الزمن سيمحو عنها آثاره فيلتقيان على قدم المساواة . أم أن الكاسب هو السابق الى الرحيل .. ؟



﴿ انا من المجرمين منتقمون ﴾
« قرآن كريم »

كانت لى به صلة وثيقة فقد كان تسليتى الوحيدة فى البلدة المقفرة .. وعندما كانت تجبرنى دواعى العمل على قضاء بضع ليال فيها أنجز خلالها ما أود انجازه .. كنت ألجأ اليه كلما وجدت من وقتى فسحة فنقضى هزيعا من الليل نسمر أمام الركية التى أشعلها داخل كوخه المتواضع .

وكان محدثا ماهرا وقاصا ممتازا .. بلغ من العمر عتيا ، ومع ذلك فما زال محتفظا بمتانة بنيانه ، ومازال يقوم بعمله كشيخ للخفراء على أتم وجه .

وعندما ذهبت الى البلدة آخر مرة بدا لى كأن هناك شيئا قد تبدل فيها .. ولم يكن لدى فى بادىء الأمر فرصة للتفكير فى كنه ذلك الشىء المتبدل .. أو الذى أحسست بنقصه من البلدة .. حتى ضمنى المجلس المعتاد بالشيخ ابراهيم .. وهنا تذكرت فجأة ذلك الشىء الذى افتقدته فتساءلت فى دهش :

– أين « لهلوبة » ياعم ابراهيم ، لعلها تكون قد هربت كعادتها .
– لهلوبة .. تعيش أنت يا سيدنا البيه .. حياتك الباقية .
– ماتت ؟ عجيبة ، كيف ؟



﴿ انا من المجرمين منتقمون ﴾
« قرآن كريم »

كانت لى به صلة وثيقة فقد كان تسليتى الوحيدة فى البلدة المقفرة .. وعندما كانت تجبرنى دواعى العمل على قضاء بضع ليال فيها أنجز خلالها ما أود انجازه .. كنت ألجأ اليه كلما وجدت من وقتى فسحة فنقضى هزيعا من الليل نسمر أمام الركية التى أشعلها داخل كوخه المتواضع .

وكان محدثا ماهرا وقاصا ممتازا .. بلغ من العمر عتيا ، ومع ذلك فما زال محتفظا بمتانة بنيانه ، ومازال يقوم بعمله كشيخ للخفراء على أتم وجه .

وعندما ذهبت الى البلدة آخر مرة بدا لى كأن هناك شيئا قد تبدل فيها .. ولم يكن لدى فى بادىء الأمر فرصة للتفكير فى كنه ذلك الشىء المتبدل .. أو الذى أحسست بنقصه من البلدة .. حتى ضمنى المجلس المعتاد بالشيخ ابراهيم .. وهنا تذكرت فجأة ذلك الشىء الذى افتقدته فتساءلت فى دهش :

– أين « لهلوبة » ياعم ابراهيم ، لعلها تكون قد هربت كعادتها .
– لهلوبة .. تعيش أنت يا سيدنا البيه .. حياتك الباقية .
– ماتت ؟ عجيبة ، كيف ؟

- محروقة ، حرقت نفسها الله يرحمها ويرحمنا جميعا . الفاتحة على أمواتنا .

ومضت ثوان ونحن نتمتم بهمسات خافتة ثم رفع الرجل كفيه ومسح بهما وجهه ، ثم أطرق محدقا فى النيران التى انبعث ضوؤها من أسفل فغمر لحيته المسترسلة وأبرز تجاعيد وجهه . ثم انطلقت من صدره زفرة طويلة وقال بصوت عميق خافت : دنيا !

ووجدتنى أحدق أنا الآخر فى النيران ، فأتصور لهلوبة بعينيها الزائغتين ونظراتها الشاردة ، وشعرها الأشعث المتطاير ووجهها الدائم الفزع وقسماتها المرتاعة الوجلة وثيابها المتهدلة الممزقة التى تكشف عن صدرها وكتفيها وقد تكأكأ حولها الصبية يسخرون منها ويهزؤون بها ، متخذين منها أضحوكة وتسلية مستثيرين غضبها بكل ما لديهم من وسائل السخرية والسباب فلا تكاد تتهجم عليهم حتى يصيحوا بها فى صوت واحد .

« اوعى النار يا لهلوبة » فلا تكاد تسمع هذه الكلمة حتى تصرخ صرخة مدوية وتبدو فزعة كأنما توشك حقا أن تقذف الى جحيم مستعر ، ثم تولى الصبية ظهرها وتنطلق تسابق الريح ، كأن الجن فى أثرها .

ويصفق الصبية طربا ، ينطلقون فى أثرها صائحين مهللين حتى تختفى عن أعينهم هاربة بين المزارع وهى تعود ككلب مذعور .

وكنت أعلم أن الشيخ ابراهيم من أكثر أهل البلدة عطفا عليها وبرا بها ، وأنه كان يهيء لها المأوى ويطعمها من جوع ويؤمنها من خوف فى الفترات المتقطعة التى تظهر خلالها فى البلدة عائدة من المزارع بعد أن تحس قارصة الجوع ويزول عنها أثر الذعر الذى سببه لها الصبية العابثون .

وهززت رأسى فى أسى وقلت :

- مسكينة .. أبعد كل هذا الذعر من النار والهرب من الحريق .. تموت محروقة .. يبدو لى أن حياتها لها قصة فهل تعرف عن ماضيها شيئا يا شيخ ابراهيم ؟

- لقد كانت امرأة مجنونة .

- أعنى قبل أن تجن .. أما كنت تعرفها قبل ذلك ؟

ومضت فترة صمت تملك الرجل خلالها شرود شديد ، ثم سمعته يقول بصوت خافت كأنما يحدث نفسه :

- أعرفها ؟ أعرفها تماما ، عندما كانت أرجح النساء عقلا وخلقا وعندما كانت أسعد أهل الأرض طرا .

كانت زوجة هانئة قريرة النفس ناعمة البال .. ليس هناك ما ينغص حياتها الا أمر واحدة .. هو « ضرتها » أو زوجة زوجها الأولى فقد كانت زهرة .. الزوجة القديمة امرأة سليطة اللسان خبيثة النفس ، وكانت تبغض حسنية (وهو الاسم الحقيقى للهلوبة) بغضا شديدا ، رغم أن الأخيرة لم تتسبب فى ايذائها قط ، بل ان الرجل قد هجرها من فرط مرارتها ، ولأنه وجد أن حياته معها قد أصبحت جحيما لا يطاق .

وهكذا لم يكن هناك ما اقترفته حسنية سوى أنها أعجبت الزوج فأقدم على زواجها ، ورأى فيها طيبة نفس وجمال خلق ، فاستراح اليها ، وهدأت نفسه الى جوارها ، ولم يعد يرى الا راضيا هانئا مسرورا .

ونهشت الغيرة قلب زهرة الأسود ، وباتت تفيض بالحقد والموجدة ، وأخذت تنتهز الفرصة لتوقع بها وتكيد لها ، وكانت حسنية تصبر على أذاها ، ولا ترد لها الكيد ، متوهمة أنها تستطيع كسبها بالحسنى والمعروف .

ومرت الأيام والزوج يزداد من زهرة نفورا ، ولم يعد يذهب الى داره

القديمة الا لماماً ، فقد وجد الراحة والاستقرار فى داره الجديدة ، وزاد من ميله اليها وحبه فيها أن وضعت له الزوجة الجديدة ولدا ، ووجدت زهرة أن الأيام تمعن فى التنكيل بها فترزق ضرتها البنين وتصيبها بالعقم . فزادت من حقدها على الحياة ، وكرهها للناس ، وباتت نفسها تجيش بالثورة وأضحت كالجمرة الكاوية ، وضاق بها الرجل ، وبمرارتها وسوئها ، حتى كان ذات يوم بلغ يوم السيل الزبى ، فطلقها ثلاثا .

ولست أدرى كيف كان وقع الطلاق فى نفس حسنية ، ولكنها كانت امرأة هادئة عاقلة ، فلم تبد عليها شماته ولا فرحة ، بل على النقيض حاولت أن تهدىء من ثائرة زوجها أو تثنيه عن فعلته ، ولكن الرجل أمرها بألا تتدخل فيما لا يعنيها .

وكانت حسنية توجس فى نفسها خيفة ، وتخشى انتقام المرأة الجريحة المكلومة ، وتتمنى لو استطاعت أن تهرب بولدها وزوجها من البلدة ، حتى لا يصيبها منها أذى ، فقد كانت تعلم أنها قادرة على الشر لا تتورع عن أى منكر أو جرم ..

والتقت المرأتان ذات يوم عقب الطلاق ، وتصدت لها المرأة المطلقة ، وقالت لها والحقد يأكل قلبها :

– لقد خلا لك الجو الآن ، فاهنئى وافرحى .
– أنا ما تمنيت لك الا كل خير .

– أنت ، سأعرف كيف أريك ، الأيام بيننا ، سأحرمك منه كما حرمتنى منه ، وسأحرمه من حياته كما حرمنى من هنائى وسود عيشى ، سأشرب من دمه وأمزق لحمه وأفرى عظامه ، سأريه من منا أقدر من الآخر ، سأيتم ابنك ، وأجعلك تبكين بدل الدمع دما ، أنا وأنت يا حسنية والزمان طويل .

وعادت حسنية الى دارها وقد أفعم الخوف قلبها . وتملكها من تهديد

المرأة وهم شديد . وأحست بجوفها يغلى بمزيج من الفزع والحزن والتحفز والانتقام .

وسقطت الشمس وادلهم الليل . وحل موعد عودة الزوج وبدأت تعد الدقائق والثوانى . وترهف السمع لكل أقدام تطرق قارعة الطريق وكل أصوات تقترب من الباب .

وتسلط الوهم عليها ، وبدأ يراود ذهنها خليط من التخيلات المنكرة ، فتصورت زوجها أعضاء محطمة وأشلاء مهشمة .

وانتصف الليل ، ولما لم يعد زوجها ، فأحست أنها توشك أن تجن . وتركت ولدها فى الدار وخرجت تهيم على وجهها ، تسأل الناس متهدجة الصوت متحشرجة الأنفاس ، حتى عادت الى الدار قبيل الفجر دون أن تعثر له على أثر .

وارتمت على الأرض تنشج باكية .

أين غاب زوجتها ؟ وهو الذى لم يعودها الغيبة ؟ ولا سيما بعد أن طلق امرأته القديمة ؟

أيحتمل أن تكون المرأة الشريرة قد نفذت وعيدها ؟
أيمكن أن تقدم على هذا الفعل المنكر ؟
لم لا ؟ انها هى نفسها تشعر أنها تستطيع أن تقدم عليه .

أجل ، ان الحقد والكراهية والرغبة فى الثأر تهون كل شر ، انها قد باتت تتلهف على أن تطبق على المرأة المجرمة ، القاتلة ، فتقرض زورها بأسنانها وتنهش قلبها ، بل أنه ليس هناك ما يرضيها ويهدىء ثائرتها ويبل حرارتها أقل من هذا الفعل .

ومضى اليوم أغبر مدلهما ، وهى جالسة تمسك قلبها بيديها ، انها ما

زالت ترجو ، ما زال لديها بقية أمل فى عودة زوجها ، وفى أنه مازال على قيد الحياة .

وانتهى اليوم أو كاد ، وقبيل الغسق سمعت على الباب دقات فقفزت من مكانها ، وقلبها يكاد يثب من بين ضلوعها .

ترى من يكون الطارق ؟ لعله هو ! أو لعله .. ولم تجسر على التفكير .. وفتحت الباب فاذا بأحد الخفراء يقف بالباب وقد بدا فى وجهه ما روعها ، وافقدها القدرة على النطق ..

وتحدث الطارق فأنبأها أنهم عثروا على جثة طافية على سطح النهر ، وأنهم لم يستطيعوا تبين حقيقة صاحبها فقد كانت ممزقة الأوصال مشوهة الوجه ، وان كانوا يرجحون كثيرا أنها جثة زوجها .. ولم تنبس المرأة ببنت شفة ، ولم تصرخ ولم تولول ، بل علت وجهها ظلمة قاتمة وهزت رأسها ببطء وأنبأت الرجل أنها كانت تعلم ثم أطرقت ببصرها الزائغ الى الأرض ، وغمغمت قائلة :

- لقد عملتها ، سأعرف كيف أريها ..

ثم أغلقت الباب عليها وجلست برهة ذاهلة شاردة ، ثم نهضت وكأنها اعتزمت أمرا .

وأقبلت على طفلها فأمرته الا يترك الدار حتى تعود ، وأنبأته أنها لن تغيب ، فستذهب الى بيت خالته زهرة وستعود بعد دقائق .

وغادرت المرأة البيت تدب فى الظلام كالشبح ، وقد جمدت قسماتها وجحظت عيناها ولم تتجه الى بيت زهرة بل اتجهت الى الناحية المضادة ، ناحية الدكاكين والسوق ، وتوقفت أمام البدال فابتاعت صفيحة جاز وعلبة ثقاب ثم يممت وجهها صوب الناحية الأخرى من البلدة ، ساعية الى بيت زهرة .

وكان البيت يقوم في ناحية منعزلة ، لا يكاد يحيط به سوى بضعة عيدان من الغاب وجذوع النخل ، وكانت الظلمة سائدة والجو قد سكنت ريحه ، والدار قد بدت صامتة ساكنة وتلفتت المرأة حولها ثم أنزلت الصفيحة من على كتفها ووضعتها في وسط الغاب وأخذت تجوس حول الدار موزعة الحطب والغاب وجذوع النخل ، ثم عادت الى الصفيحة ، وبدأت تسكب ما فيها خارج الدار على الجدر والأعشاب والحطب فلم تترك منفذا لهارب ، وأشعلت الثقاب وألقت به على الهشيم .

ولم تمض لحظة حتى سرت النار كلمح البرق ، وارتفع اللهب الى عنان السماء .. وأحاطت النار بالبيت ، ثم انتقلت اليه ووقفت المرأة تبتسم راضية ، وأحست أن قلبها قد ردته النار ، وهدأه اللهب ، وعادت الى البيت مسرعة لتطمئن على ولدها .



وصمت الرجل ووجدته يمد يده بماشة يقلب بها نار الركية ، فعلا لهيبها ، وهبت الريح من الخارج تصفر وتعول ، وطال صمته حتى عدت أستحثه : وبعد ذلك ؟

ورفع كتفيه وهز رأسه وقلب شفته السفلى ، وبدا لي أن صوته قد تحشرج وأنه لا يستطيع الكلام ، وكأنه يعاني ألما دفينا ، ولكن زفرة من صدره أعادته الى حالته الأولى ، وسمعته يتمتم :

- لا شيء هناك أكثر من هذا .
- كيف ؟ انك لم تقل لي بعد كيف جنت ..؟
- آه .. لقد عادت لتطمئن على ولدها ، فلم تجده .
- لم تجده ! وأين ذهب ؟

- لقد خشي البقاء وحده في الدار ، فلحق بها عند خالته زهرة لقد كان

داخل الدار ، عندما اشتعلت النار ، لقد احرقته أمه ، هل عرفت كيف جنت ؟

وتملكني ذهول شديد ، وأخذت أحدق في الكهل وهو يحدق في النيران وبدت لي تجاعيد وجهه رهيبة مخيفة ورأيت عبرات تتهاوى من مقتليه الى أخاديد وجهه .. وعاد يتساءل بصوته المتحشرج :

- هل علمت كيف جنت ؟ ليس هناك في جنونها أي عجب أما العجب حقا . فهو أنني الآن لم أجن ؟

- أنت ؟ أنت تجن ؟؟ وما شأنك أنت بها ؟

- انى زوجها ، أبو الطفل المحروق ، وزوج المرأه المجنونة ، غبت عنهما يومين فعدت لأراه رمادا ، وأراها مخبولة هائمة ، لا تعرف من أكون .

- ولكن ، جثة من كانت اذن تلك التي عثروا عليها طافية فوق النهر ؟

- جثة قتيل آخر .

- وأنت ؟ أين كنت في غيبتك ؟

- كنت أقتل القتيل .. كنت أدبر الجريمة وأحكم صنعها واخفائها . غبت بضعة أيام قتلت فيها غريم لي كنت أبغضه وأحقد عليه . لقد استدرجته الى كمين ثم أطبقت عليه فأخمدت أنفاسه ونزعت روحه ومثلت بجسده شر تمثيل حتى شوهت معالمه . ولم يعد أحد يستطيع تمييزه ثم ألقيت بجثته الى النهر..

ونفضت يدى من الجريمة والثقة تملأ نفسي في أن احدا لن يكشف أمرها . كانت جريمة محكمة عرفت كيف أخفي منها كل أثر وعرفت كيف أحبك الأطراف وأحكم التدبير وأخفي المعالم . ولم يستطع احد من أهل البلدة أن يعرف الجاني أو يدل على المجرم ولم يكتشف أحد جريمتي ، ولم ينزل بي أحد أي عقاب ، إلا واحد يرمقني من عال : اكتشف جريمتي وأنزل بي العقاب وأي عقاب .

عويل الرياح

﴿ قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ماشاء الله لكل أمة أجل اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

« قرآن كريم »

– لا ، لا . أنا لست مجنونا . حتى اضيع يوما بأكمله من أجل « غدوة » .

– ليست المسألة مسألة « غدوة » ، انه واجب لا بد أن تؤديه ، انه عمك و ..

– ليس بعمى

– عم أبيك

– ابن عم عم أبى

– ليكن ما يكون .. عمك أو عم أمك أو عم أبيك . انه قريبك وليس له غيرك ، ولا أظن زيارته كل بضعة أعوام بالشىء الذى يشق عليك .. لا سيما أن الرجل قد أرسل يدعونا لزيارته .. وليس من الذوق أن نخيب رجاءه .

- أنت تعرفين رداءة الطريق وطوله وكثرة المطبات التى به ، قلت لك أنه يجب أن نعتبره واجبا . والواجب ليس دائما بالأمر الممتع السهل .

- ثم أن السماء ملبدة بالغيوم والريح تهب قبلية باردة . ولا أظن النهار سينقضى دون أن تمطر السماء . فماذا نفعل اذا انهمرت علينا سيولا فى الطريق وانقلبت أتربة الطريق أوحالا ، وأصبحت العودة ..

- أرجوك ، كفى تخمينا وتشاؤما . ان السماء لن تمطر والجو عادى . ثم هب أنها أمطرت فلن تمطر الا بضع قطرات لن تغلق الطريق ولن تجعل السير مستحيلا . اننا لم نسمع من قبل فى مصر عن السيول التى تتحدث عنها . أرجوك ، لا تكن مكسالا . انه عمك أنت وليس عمى أنا .. قم وارتد ملابسك حتى لا نتأخر .

- أمصرة أنت على الذهاب .

- قم ، قم . اننا سنتسلى بالسفر كثيرا .

وهكذا أقنعت ليلى زوجها محمود بالسفر لقضاء يوم الجمعة فى عزبة عمه عبد الفتاح بك شلبى المستشار السابق .

والواقع أن كلمة « عزبة » بها شيء من التفخيم والمبالغة ، فقد كانت الأرض كلها لا تتجاوز العشرين فدانا زرعت معظمها أشجارا للفاكهة وتوسطها البيت الذى يقطن فيه الرجل ، وهو يعتبر من أفخم البيوت الريفية . وقد ابتاع عبد الفتاح بك الأرض والبيت منذ بضع سنوات عقب احالته الى المعاش .

- وكان الرجل يرغب فى تمضية ما تبقى من حياته فى هدوء وسكينه .. لا سيما وأنه كان وحيدا عاش أعزب بلا زوج ولا بنين لا يؤنس وحدته غير أم أحمد الطباخة التى ظلت فى خدمته منذ ما يقرب من الثلاثين عاما .

* * *

وانتهى محمود وليلى من ارتداء ملابسهما وبدءا رحلتهما بالعربة فى الطريق الزراعى . وفى الطريق تساءلت ليلى ضاحكة :

– ترى أما زال بيت عمك مسكونا ؟

– أتصدقين تلك الخرافات ؟

– ألم يقل لنا عندما ابتاعه أن الشائعات تجزم بأنه مسكُون وأنه لهذا اشترى البيت والأرض التى حولها – كما قال – بالتراب ؟

– لعل العفاريت تساعده فى العمل فى الأرض .. ان أجر العامل اليوم مرتفع فلعله يستعيض بالعفاريت عن العمال .

قال محمود جملته ساخرا ثم استغرق الاثنان فى الصمت مرة أخرى . وأخذت العربة تنهب الطريق وهى تقفز بين آن وآخر اذا ما صادفها مطب .

* * *

لندع العربة فى الطريق ولنسبقها الى البيت ، فتجد العجوز قد استلقى فى أحد المقاعد المستطيلة المريحة وقد ارتدى جلبابا أبيض ووضع على كتفه عباءه ثقيلة من الصوف ، وغطى رأسه بطاقية استقرت حافتها على أذنيه وأخفت كل جبينه وجزءا من حاجبيه ، وبدأ وجهه نحيلا مجعدا قد تناثرت فيه الشعيرات البيضاء .. واستقر المنظار على مقدمة أنفه وتهدل شاربه الأشيب على شفتيه ، ومن أسفل الجلباب بدت ساقاه النحيلتان وقد غطتها ساقا السروال الطويلتان .. ودست قدماه فى البنتوفلى الصوف ، وأمسك بيديه احدى الصحف يقلب عينيه بين أعمدتها ثم أخذ ينظر الى الساعة المعلقة على الحائط بين آن وآخر . وبدت بباب الصالة التى استقرت فيها العجوز أم أحمد الطباخة بجسدها السمين ورأسها المربوط بالمنديل « أبو أوية » وقالت متسائلة :

– ألم يأت محمود بك ؟

- لم يأت بعد ، لعله فى الطريق .
- أو لعله لن يأت .

- لا أظن ، فلا بد أن يكون خطابى قد وصل اليه ، وقد الححت عليه فى الحضور ، فاني أريد أن أبت فى هذه المسألة التى تشغل رأسى .
- أية مسألة ؟

- أنت تعلمين أنه وارثى الوحيد . ولا بد أن يؤول اليه البيت . وقد يبدو البيت والأرض ارثا محترما يستحق أن يشكرنى عليه . ولكنى فى الواقع عندما أخلو الى نفسى أحس بشىء من تأنيب الضمير عندما أفكر أنى سأفرض عليه هذا البيت المشئوم ، وأن هذه الشائعات التى تحيط به قد تصدق فيصيبه شؤمه وتلحق به لعنته .

- اذا كنت تخشى عليه منه فلم لا تبيعه ؟

- اننى لا أريد أن أبيعه وأنا حى ، فأنا لا أخشى على نفسى منه ، بل انى فى الواقع شغوف بأن أرى التجربة بنفسى .. وأرى ما اذا كان هذا الشؤم المزعوم سيصيبنى ، أم هو لا يزيد عن حديث خرافة وشائعة مرجف ، انى لأرى نفسى خير محل للتجربة فقد شارفت على السبعين ولا أظن نهايتى ستتأخر كثيرا . ولذا فلست أهتم كثيرا بالطريقة التى سأنتهى بها ، ولا يزعجنى بتاتا أن أموت على الفراش فى هدوء وسكينة أو أموت - كما هو مفروض على كل مالك لهذا البيت - موته عنيفة .. فسواء عندى الموت العنيف أو الطبيعي ، كلها موته ستنتهى بنا الى نفس المآل ولست أخشى النهاية لأنى قد شارفتها ولكن الذى أخشى عليه ، هو المسكين الذى سيؤول اليه هذا البيت ، انه ما زال شابا .

- اذن فليبعه هو .
- لا أظنه سيرضى ، حتى لو صدقت الشائعة على .. وانتهيت الى

مصير أسلافي من ملاك البيت ، فالانسان عندما يكون في مثل شبابه وفي مثل حيويته يصعب عليه أن يصدق هذه الظنون ، ولا يملك الا أن يسخر بكل ما هو غير كائن ولا ملموس من أشباح وأرواح ولعنات وشؤم . ان تفكيره الواقعي يدحر أمامه كل تلك الأوهام ، ولا أظن جمال البيت الا بمغرية باستبقائه ، وأغلب الظن أنه حتى لو حاول بيعه فلن يجد له مشتريا بسهولة .

- على أية حال انه أدرى بنفسه ، وهو المسئول عما يملك ..

- ولذا قد دعوته حتى يكون على بينة من أمره .



في تلك اللحظة كان محمود يقترب بعربته من قنطرة على احدى الترع ، وعندما شارف حافة الترعة وجد حبلا يصل بين حافتي القنطرة ويشد عليه الطريق ، وأنبأه أحد الفلاحين أن القنطرة بها خلل وأن المرور محول الى طريق جانبي متفرع من الطريق الأصلي حيث وضعت قنطرة مؤقتة تستعمل لعبور الترعة حتى يتم اجراء الاصلاح بالقنطرة الأصلية ..

وأشار الرجل لمحمود على الطريق الذي يتبعه ، فأخذ محمود في تحويل اتجاه العربة ثم عاد أدراجه ليتبع الطريق الآخر .

وكان الطريق ضيقا شديد الوعورة اذا لم يكن يستعمل لغير الدواب . ولكن السير لم يطل به فيه حتى وصل الى حافة الترعة ووقف أمام القنطرة الثانية ..

وتردد محمود برهة قبل أن يعبر القنطرة ، فقد كان منظرها لا يشجع كثيرا على عبورها بل كان عبورها يعد مغامرة كبرى ، ومع ذلك فلم يطل تردده كثيرا ، وسرعان ما ضغط على محرك البنزين (الاكسلاتير) وسمع قرقعة الألواح تحت عجلات السيارة وفي ثانية عبرت السيارة بسلام .. وضحك محمود قائلا :

- ربنا يستر في العودة ..

ثم أخذ يخوض في الطريق الضيق مرة أخرى حتى وصل الى الطريق الأصلى ..

ولم يطل بهما السير كثيرا حتى أشرفا على الدار ولاحت لهما الصفوف المتكاثفة من أشجار الجازورينا التى تحيط بأشجار الفاكهة والتى تحدد الأرض من الخارج وتشقها فى صفوف متقاطعة لتحجب عنها الريح .. ودارت العربة يمينا لتدخل فى بوابة كتب عليها « طريق خاص » وسارت بين أشجار الجازورينا الكثيفة العالية .

وكانت السماء مليئة بالسحب السوداء الداكنة .. والريح تهب وقتذاك صرصرا عاتية .. فتنفذ بين أوراق الجازورينا الرفيعة لتحدث بها صوتا عجيبا أشبه بالنواح والأنين .

وأنصتت ليلى فى دهش وتساءلت :
- محمود ، أتسمع هذا ؟
- ماذا تقصدين ؟
- هذا الصوت العجيب الشبيه بصوت امرأة تولول وتنوح .
- أتعنين صوت الرياح تنفذ خلال أشجار الجازورينا ؟
- أجل .. انى ما سمعت الريح تولول بمثل هذا الصوت الحزين .

وأخيرا وصلت العربة .. ووقفت أمام الباب الخشبى للحديقة التى تحيط بالدار ، والتى تكاثفت فيها الأشجار حتى حجبت كل ما حولها .. فاستقبلهما بستانى كان يعمل بالحديقة وقادهما الى الباب الداخلى حيث وقف العم يحييهما مرحبا .

وعند الانتهاء من الغداء والبدء فى احتساء القهوة بدأ الحديث فى

موضوع البيت والشائعات التى تحيط به .

قال العجوز مجيبا على سؤال وجهته ليلى :

- الواقع انه ليس مسكونا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة وأظننى أدرى الناس بذلك . فانى أستطيع أن أؤكد إننى خلال كل هذه السنين التى قضيتها فيه لم أر به شيئا يثير الوساوس أو يبعث على الشك . لا أصوات ولا أشباح ولا أى شيء من هذا القبيل . وأستطيع أن أجزم أن كل ما يلصق به من هذا القبيل لا يعدو الخرافات أو الاشاعات الكاذبة التى لا أصل لها والتى يتناقلها الناس بعضهم عن بعض .

وصمت الرجل برهة حتى بدأ كأن حديثه قد انتهى .. ولكنه جذب من سيجارته نفسا طويلا نفخه فى الهواء ثم عاد يقول :

- ولكن ذلك لا يمنع من أن ثمة شيء آخر يلصق بالبيت . قد يكون حقيقة أو مصادفة .. وهو أنه بيت مشؤوم ما من انسان تملكه الا وانتهى بفاجعة ومات قتيلا .

وتساءلت ليلى فى دهشة :

- أو حدث ذلك حقا ؟

- الى حد ما أعلم ، نعم ، فأنا أعرف ثلاث فواجع حدثت لثلاثة من ملاكه .

- أمر عجيب !

- الأول على بك هاشم .. والثانى رجل ثرى ايطالى يدعى مسيو سكارابى ، أما الثالث فكان رشاد بك زكى .. ولقد كانت الاصابة - اصابة الشؤم - فى ولديه وليس فيه .

وعادت ليلى تسأل فى صوت خائف ولهجة وجلة :

- كل هؤلاء تظهر عفاريتهم فى البيت ؟

- لم أقل ذلك.، ان ذكر العفاريت لم يجر على لسانى . كل ما قلته هو أنهم قتلوا !

وهز محمود رأسه متسائلا :

- وكيف قتلوا ؟

ووضع الرجل كفه على جبينه كأنما يعتصر ذهنه أو كأنه يجمع شتاته ليقص القصة . وبعد فترة من الصمت بدأ حديثه قائلا :

- الأول ، على بك هاشم ، هو الذى شيد البيت وزرع كل هذه الأشجار المتكاثفة حوله . ويبدو لى أنه كان مخلوقا مقتدرا وأنه لم يكن يبغى من هذه الأرض ربحا وانه شيد البيت لمزاجه الخاص فقد أنفق عليه مبلغا طائلا ، حتى لم يعد البيت بيتا ريفيا بل قصرا منيفا . كما تفنن فى عمل حديقته .

وكان الرجل يعيش مع زوجته وحدهما ، ولم يكونا قد أنجبا أبناء ، وكانا يقضيان معظم وقتهما فى هذا البيت رغم أنهما كانا يملكان بيتا فى القاهرة ، وقد تعود الرجل خلال نزوله فى البيت أن يدعو الكثير من الأصدقاء والأقارب لزيارته ، وكان كثيرا ما يقيم الولائم والحفلات ، فقد كان مخلوقا كريما محبوبا .

وفى ذات يوم دعا أحد أصدقائه وزوجته لقضاء بضعة أيام فى البيت ليتمتعا بالمناظر الريفية ، وعندما جلس الأربعة للغذاء فى أول يوم وجدوا الطباخ قد أعد لهم مائدة حافلة بأشهى الأطعمة ، وكان أهمها قارب طويل به سمكة أعدت بالمايونيز .

وقبل أن يبدأ الطعام قال الصديق ضاحكا وهو يشير الى السمكة :

- يقولون ان المايونيز كثيرا ما يسبب التسمم ولكن منظر السمكة - مع ذلك - يغرينى بالانتحار .

ثم دفع ملعقته فى السمكة وهو يقهقه قائلا :

- آل يا روحى ما بعدك روح ، اقرأ الفاتحة علي روحى يا هاشم بك واكتب على قبرى « مات شهيد المايونيز » .

وجاوبه هاشم على قهقهته بقهقهة أعلى منها وقال وهو يغترف من المايونيز فى طبقه . والله لن أعيش بعدك ثانية .

وصمت عبد الفتاح بك برهة ثم أطلق من صدره تنهيدة حارة وأردف قائلا :

- وفعلا لم يعش بعده ثانية ، لقد مات الأربعة ، الرجلان وزوجتاهما ماتوا جميعا متسممين من طبق المايونيز .

وقد تبدو لنا الحادثة طبيعية ولكن أهل الناحية أبوا الا أن يلصقوا النحس بالبيت فقد استكثروا على طبق المايونيز أن يصرع أربعة . ولو كان التسمم قد اقتصر على صاحب البيت وزوجته لكان أمرا معقولا ، اما أن يصرع الأربعة مرة واحدة فهذا لم يكن فى نظرهم بالأمر الطبيعى .

ومرت الأيام بعد ذلك والدار خاوية على عروشها ، اذ لم يجسر أحد من الورثة على أن يغامر بسكناها ، حتى هيأ الله لها مالكا جديدا ، هو مسيو سكارابى ، أقدم على شرائها ساخرا من تلك الشائعات التى يثيرونها حولها ، فأقسم أن أول أكلة يتناولها فى البيت لابد وأن تكون طبقا من المايونيز .

وفعلا افتتح البيت بأكلة مايونيز ، ولم يمت بالطبع ، رغم أن أهل الناحية ظلوا يتوقعون موته بين آونة وأخرى .

لم يمت الرجل بالمايونيز ، اذ لم يكن الشؤم يحل بنفس الطريقة ومع

ذلك فان نهايته سرعان ما حانت ولقى الرجل مصرعه بطريقة جديدة .

كان مسيو سكارابى من أثرياء الأجانب الذين يقطنون مصر ، وأظنه كان يمتلك مصنعا للسجائر ، وكانت هوايته المحببة هى ركون الخيل ، وقد تتوهمون من مجرد قولى انه كان يهوى ركوب الخيل ، انه لابد قد سقط من فوق جواده ودق عنقه ، وهذا ما كان يتوقعه فعلا كل من حوله ، ولكنه مع ذلك لقى مصرعه بطريقة مبتكرة لا تخطر على بال .

كان الرجل يخرج لتدريب جواده على القفز ، وقد رغب فى أن يهىء فى الحديقة ساحة للتدريب يقيم فيها بضعة حواجز . وكانت توجد فى ركن الحديقة ، الساحة التى ينشدها ولكن احدى شجيرات الكافور الضخمة كانت تقف عقبة فى سبيل اعدادها ، فأمر رجاله من الفلاحين بازالة الشجرة .

وقد تكون لديكم فكرة عن كيفية قطع الشجرة . ان أول ما يفعلونه هو ازالة الفروع العالية حتى يبقى الجذع وحده ثم يحفرون حول الجذع ويقطعونه من جانب واحد ويربطونه من أعلاه بالحبال ثم يجذبونه تجاه الجانب المقطوع فيهوى الى الأرض .

ولقد قام الرجال بقطع الفروع كلها تقريبا فلم يبق سوى فرع كبير لم يكد يضربه الرجال بضع ضربات حتى هوى ، ولكنه لم يسقط الى الأرض بل ظل طرفه الأعلى مسندا الى شجرة مجاورة وظل الفرع معلقا بين جذعه الأصلى والشجرة الاخرى ، وترك الرجال الفرع المعلق ، فقد كان من العسير أن يقطعونه للنهاية حتى يهوى ، وأخذوا يضربون الجذع الأصلى من أسفله .

ولكن سكارابى كان من نوع عجول حامى الطبع لا يعرف الصبر ، وساءه أن يظل الفرع معلقا ، فسرعان ما أخذ من أحد الرجال الفرع المعلق ، فقد كان من العسير أن يقطعونه للنهاية .

وكان الرجل خفيف الحركة مفتول العضل ، وسرعان ما كان يقف عند

أول الفرع وأخذ يضرب ببلطته الجزء الذى لم يتم قطعه وبعد بضع ضربات أوشك الجزع أن يهوى ، ورفع سكارابى يده بالضربة الأخيرة ولكن توازنه اختل فهوى الى الأرض .

ولكى يتم المنظر ، هوى الفرع المعلق فوقه ، فهشمه تهشيما ومزق جسده اربا .

وأخلد العجوز الى الصمت برهة ريثما يتمالك أنفاسه ويستعيد فى ذهنه الجزء الثالث من القصة .

وبدأ على ليلى القلق والخوف مما يوشك أن يقص ، فقد كانت تعرف أنه سيقص مصرع الطفلين ، وليس أشق على النفس من حوادث الأطفال .

وأخيرا عاود الرجل حديثه قائلا :

- أما رشاد بك زكى وهو المالك الثالث فقد كان من كبار التجار ، ويبدو لى أنه لم تكن لديه فكرة عن الشوم الذى يلازم البيت ، فقد تمت الصفقة بسرعة ، وكانت قد مضت مدة طويلة على الحادثة الأخيرة ، وظل البيت خاليا حتى نسى الناس أمره .

وكان رشاد بك من كبار تجار القطن ، رجلا مقتدرا ثريا ، وقد ابتاع البيت لزوجته وأولاده ، وأخذ فى تهذيب الحديقة وتقليم الأشجار ، وسرعان ما عاد الى البيت منظره ورونقه وبهجته .

وكان أول تجديد قام به هو بناء حوض للسباحة لولديه خالد وابراهيم اللذان لم يتجاوزا التاسعة .

وكان حوض السباحة هو السبب فى هذه المرة .

لم يغرق الطفلان ، لان الغرق ميتة معقولة . فضلا عن أنه لم يكن هناك

مبرر للغرق والطفلان يجيدان السباحة .

ولكنهما مع ذلك ماتا فى حمام السباحة .

وقعت الحادثة فى احدى الليالى ، وقد خطر لأحد الطفلين أن يذهب للسباحة ليلا ، فعرض على أخيه الفكرة وتسللا الاثنين من البيت دون أن يشعر بهما أحد ، وذهبا الى الحوض فى الظلمة المدلهمة ووقفا على سلم القفز ، وقفزا .

وكان الحمام فارغا ، وهبط الطفلان على رأسيهما الى أرض الحمام ، ولم يكتشف أحد الحادث حتى الصباح عندما ذهبت الأمم تبحث عن طفليها فلم تجد سوى الجثتين وبقع الدماء وفتات المخ المتطاير .

ولم يكد الرجل ينتهى من حديثه حتى اندفع الباب المؤدى الى الحديقة والذى لم يكن قد أغلق جيدا تحت وطأة الريح وهبت الريح عاتية تعصف بالستائر وأغطية الأثاث ، وتدفع أمامها أوراق الصحف الملقاة على الأرض .

أرهفت ليلى أذنيها وأخذت تنصت فى عجب مشوب بالخوف وقالت فى صوت خافت :

- أتسمع ؟

وتساءل عبد الفتاح بك فى اهتمام : ماذا ؟

- هذا الصوت .
- أيو صوت ؟
- صوت العويل والنواح الذى يصاحب هبوب الريح .
- أتمسعينه أنت أيضا ؟
- أجل ، أجل .

وكان محمود قد نهض فأغلق الباب وعاد يقول فى هدوء :

- انه صوت الرياح تعبث بالجازورينا .

وصدق العجوز على قوله وهو يهز رأسه فى تؤدة قائلا :

- أجل انه صوت الرياح ، انه لا يمكن أن يكون سوى ذلك وصمت برهة ثم أردف قائلا كأنه يتم بقية حديثه :

- هذه هى المآسى التى حدثت لاصحاب البيت ، لم تكن هناك أشباح ولا أرواح . ولكن الفلاحين يأبون أن يصدقوا ذلك .

ولم يكن من المستطاع صد تيار الشائعات التى أخذت تنسج القصص المحكمة عن الجنية التى تطوف بالدار مولولة نائحة ، لاسيما وأن هذا الصوت الذى سمعتموه الآن كان يصاحب كل حادثة .

أجل ، ان هذا النواح والعويل الذى يصدر من عبث الريح بأشجار الجازورينا قد سمع فى كل حادثة ، لقد تحدث عنه الخدم فى يوم أكلة المايونيز ورواه الرجال يوم حادثة الشجرة ، وجزم به الخفير ليلة سقوط الطفلين .

وضحك محمود واعترض قائلا :

- ان الصوت لابد أن يصدر كلما هبت الريح ، ولابد أن صادفت الحوادث الثلاث أياما ذات ريح .

- قولك معقول ، ولكن لا أحد يقبل تصديقه هنا . انهم يأبون الا أن ينسبوه الى الجنية الباكية المعولة ؟ على أية حال ليقل الناس ما يقولون ، لقد صممت أنا على أن القى التجربة بنفسى . انى لست صغيرا ، وانى لأتوقع النهاية بين آونة وأخرى ، وسواء عندى مت قتيلا أو مت موتا طبيعيا ، ولكن الدور عليك أنت انك أنت الذى سترث البيت وانى أخاف عليك أن تبتلى به .

ولم يتسطع محمود أن يكتم ضحكته وقاطعه بقوله :

- لا تخش شيئا . ان شاء الله ستتمتع بعمر طويل وسأتمتع بعدك بعمر أطول ما دمنا لا نأكل المايونيز المسموم . ولا نتسلق فوق قمة شجرة ولا نقفز فى أحواض السباحة الفارغة .

- أوافقك على كل ما تقول ، ولشد ما يسرنى منك شدة ايمانك وتفاؤلك وعدم اعتقادك فى هذه الخرافات .

وكانت الساعة الرابعة عندما بدأت العربة تتحرك بمحمود وزوجته عائدة بهما الى القاهرة وكان عصف الريح واكفهرار السماء يشتد . بل ان الرذاذ قد بدأ يتساقط فعلا .

وبعد برهة قال محمود وقد اقتربا من مفترق طريق يؤدى من اليسار الى طريق ضيق :

- أظن أن هذا هو الطريق الذى يوصل الى القنطرة الجديدة الذى عبرناه فى المجىء .

وأجابت ليلى دون تفكير وهى ترقب المطر الذى أخذ يشتد :

- أظن ذلك .

ودلف محمود فى الطريق الضيق ، وأخذت العربة تهبط فوق المطبات واشتد انهمار المطر . وتساءلت ليلى :

- لماذا لا تشغل مساحة الزجاجة حتى تكشف الطريق أمامك .

- انها لا تعمل . والطريق واضح .

ومضت فترة طويلة دون أن تصل العربة الى القنطرة ، ودون أن يبدو أثر للترعة ، وقال محمود :

- أظن من الخير أن نقف لنمسح الزجاج فانى لا أكاد أبصر شيئا أمامى ..

وغادر محمود العربة وأخرج منديله ومسح الزجاج ثم عاد الى مقعده وواصل السير .

ومضت فترة أخرى دون أن يبدو للقنطرة أثر ، وقال محمود :
- الظاهر أننا قد أخطأنا الطريق .
- انى أرى طريقا على يميننا ، اتجه اليه .

- لا . لا ان من الخطر التخبط ، وانى أرى من الأفضل أن نعود من نفس الطريق الأصلى ، ثم نأخذ الطريق الصحيح .

وأخذ محمود يغير اتجاه العربة ثم عاد القهقرى مرة أخرى .

وبدأ الظلام يسقط ، فلم تعد العربة الى الطريق الأصلى الا والظلمة قد اشتدت والنهار قد ولى

وكان المطر مازال ينهمر فى قوة ، والريح تشتد والعويل يأتى من بعيد حتى يكاد لا يسمع .

وتمهل محمود فى السير ، وتساءلت ليلى :
- لماذا لا تضىء النور الكبير ؟

- الظاهر أنه يوم نحس . انه لا يضىء ، ربما قد حدث تماس أو ربما تكون المصابيح قد احترقت .
وبعد برهة توقف محمود وأخذ يمسح الزجاج مرة ثانية وقال لليلى :

- أظن هذا هو الطريق الصحيح ، انى أذكر أن شجرة الكافور هذه كانت على يمينه .

ومرة أخرى دخل محمود فى الطريق الضيق ، وسارت العربة الهوينا ، وقال محمود فى ضيق :

- انى لا أكاد أبصر شيئا أمامى ، لقد عاد المطر يغطى الزجاج ما العمل ؟

- سأفتح زجاج النافذة وأطل برأسى منها لأرشدك على الطريق وعليك أن تسير بمنتهى البطء .

- ولكنك ستتعرضين للبرد .

- ليس أمامنا سوى ذلك ، والبرد محتمل .

وبدأت ليلى الحملقة من النافذة وقد أطلت منها مائلة بجذعها مادة عنقها الى الخارج وهى تقول بين آونة وأخرى : يمينك أو يسارك أو رويدا رويدا . وفجأة صاحت ليلى بصوت ملؤه الفزع :

- قف . قف . ان أمامك حفرة كبيرة توشك أن تهوى فيها وضغط محمود الفرامل بعنف فتوقفت العربة مرة واحدة .

واضطجعت ليلى على مقعدها وقد تلاحقت أنفاسها واشتدت دقات قلبها . وغادر محمود العربة وسار بضع خطوات أمامها ليستكشف الهاوية التى كان يوشك أن يتردى فيها ، فلم يجد شيئا ، ووجد الطريق معبدا أمامه .. فصاح بليلى :

- أين هى تلك الحفرة ؟

- لقد رأيتها تفغر فاها وهى توشك أن تبتلعنا يجب أن نعود يا محمود . انى خائفة ، انى أرتجف .

- خائفة مم !

- خائفة من كل شيء .. من الظلمة والمطر ومن عويل الرياح ان من

الجنون أن نحاول العودة هذه الليلة . يجب أن نعود الى بيت عمك ونقضى ليلتنا به ثم نرحل في الصباح ، انى أخشى أن يكون شئوم الدار قد لحقنا ، فان صوت العويل والنواح يطن فى أذنى طنينا مفزعا .

– ما هذا الجنون الذى تهرفين به ؟ ما لنا وللدار ، والعويل والنواح ، أخرجى من رأسك كل هذه الخرافات . لا تدعى قصص العجوز تؤثر على أعصابك ، انك امرأة متعلمة وعيب عليك أن تفكرى هذا التفكير .

– أرجوك يا محمود أن تعود بنا . ان اليوم يبدو نحسا من أوله انهم كلهم كانوا يسخرون من الشائعات كما تسخر أنت وكلهم راحوا ضحية سخريتهم .

– ليلى ، أرجوك أن تكفى عن هذا الهذيان .

– أى هذيان ؟ ألم تسمع قول عمك ان كل حادث كان يصاحبه هذا العويل والنواح الذى يسمع من هبوب الرياح ؟

– ولكن مالنا نحن وكل هذا ، حتى لو صدق كل ما تقولينه فاننا أبعد ما نكون عن شئوم هذه الدار . انه لا ناقة لنا فيها ولا جمل . أنسيت أن صاحبها مازال على قيد الحياة ؟ وانه اذا كان هناك شئوم واذا كان عويل الرياح ينذر بحادث فانه هو الذى سيتعرض له لا نحن . اننا لم نرث الدار بعد . وما دام عبد الفتاح بك مازال على قيد الحياة فيجب أن نضع فى بطنينا بطيخة صيفي وألا نخشى من هذه الخرافات التى يزعمونها ، هيا أيتها البلهاء وأدع للعم العجوز بطول العمر حتى يقينا لعنة الدار . هيا ولا تكونى حمقاء .

واتخذ محمود مكانه أمام عجلة القيادة وهو يحاول التضاحك وعادت السيارة من جديد متجهة صوب القنطرة التى يفضى اليها الطريق الضيق وعادت ليلى تطل برأسها من باب العربة لترشد محمود فى سيره .

وبعد برهة قالت ليلى .. يبدو أننا نقترب من الترعة . حمدا لله اننا اهتدينا الى الطريق خذ حذرك جيدا حتى نعبر القنطرة بسلام . لا تنحرف هكذا الى اليسار ، أمسك يمينك . أجل هكذا . يمينك ، يمينك . تمهل . تمهل اننا نقترب من القنطرة .

واستمرت العربة تتقدم . وعلى حين غرة صرخت ليلى صرخة فزع : محمود ، قف ، قف .

وصاح بها محمود ناهرا :

- ليلى .. كفى عن هذا الصراخ انك ستقذفين بنا الى الترعة ، ان أعصابك متعبة فأرجوك أن تنامى . أو تغمضى عينيك حتى أعبر الترعة . انك بصراخك تجعلين عجلة القيادة تضطرب فى يدى .

ولكن ليلى كانت مستمرة فى صياحها كأنما قد أصابتها جنة :

- قف ، قف ، قف .

وهبت الريح معولة نائحة . واستمرت هى تصيح بملء فيها :

- قف ، قف . لقد ضللت الطريق . ليس أمامنا قنطرة .

وفى تلك اللحظة هوت العربة الى جوف الترعة .. وضاع صراخها بين القرقعة وعويل الرياح .

★ ★ ★

وأفاقت ليلى لتجد نفسها راقدة على الفراش فى أحد المستشفيات ، ولتعلم انها نجت بأعجوبة وأن زوجها قد قضى عليه فى حادث انقلاب العربة فى الترعة . واندفعت تصرخ كالمجانين وتصيح بمن حولها :

- مستحيل ، مستحيل . لقد قال اننا أبعد ما نكون عن لعنة الدار . ان

البيت لم يصبح لنا بعد ، وان عمه مازال على قيد الحياة ، وهو الذى يجب أن يحل به الشؤم لانحن . أجل ، أجل . ان عويل الرياح لا يعنينا . فليس لنا بكل هذا أية صلة .

ولكنها عندما أفاقت مرة ثانية علمت أن المسألة ليست مستحيلة كما كانت تظن ، لان سقف البيت قد خر على صاحبه فأرداه قتيلا فى جلسته .. وعندما أخرجت جثته من بين الأنقاض تبين أن ساعته قد وقفت على الساعة السابعة ، الساعة التى انقض عليه فيها السقف فحطم جسده .

وعندما أخرجت جثة محمود من الترعة كانت ساعته قد وقفت على السابعة والخمس دقائق .

لقد ورث الدار لمدة خمس دقائق .. كانت كافية لأن يحل به شؤمها ..

نفحة من الإيمان

﴿ قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلى جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ .

« قرآن كريم »

ارتد الراعى ببطء حذرا من حافة الهاوية ، وقال مشيرا بعصاه الى جوفها النائى السحيق :

– لا فائدة هنالك .. لقد ضل سبيله بين الأشواك فى جوف الهاوية .. خير لنا أن نعود الى القطيع ، وليدبر الله أمرنا وأمره .

وعلى الصخور الصلدة وقف بجواره رجلان : رجل مثله فى مقتبل عمره وميعة صباه .. وآخر قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا .. وهز

نفحة من الإيمان

﴿ قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكـاة مادمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلى جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ .

« قرآن كريم »

ارتد الراعى ببطء حذرا من حافة الهاوية ، وقال مشيرا بعصاه الى جوفها النائى السحيق :

– لا فائدة هنالك .. لقد ضل سبيله بين الأشواك فى جوف الهاوية .. خير لنا أن نعود الى القطيع ، وليدبر الله أمرنا وأمره .

وعلى الصخور الصلدة وقف بجواره رجلان : رجل مثله فى مقتبل عمره وميعة صباه .. وآخر قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا .. وهز

أولهما رأسه مؤمنا على قول صاحبه ، وأدار ظهره الى الهاوية وقد هم بالعودة معه .. ولكن الكهل لم يتحرك ، بل استمر يحملق فى الهاوية ببصره ، وقد اتكأ بجسده الضامر الناحل على عصاه ، وأرهف أذنيه إلى صوت قد انبعث من أسفل وسرى فى ذلك الهواء الراكد الحار ، فلم يكد يصل الى الأسماع حتى التقطته همسا خفيفا وأنينا خافتا .

وأبطأ الشابان الخطى ، وتلفتا الى الراعى الكهل ، وأعاد أحدهما القول مرة أخرى :

- لا فائدة يا أبتاه .. نحن لا نملك له نفعا .. وخير لك أن تعود معنا .

ثم جذبه برفق من ذراعه وأردف قائلا :

- هيا بنا .. ان الأمر لا يستحق كثير حزن ولا أسف .. فهو على أية حال أصغرها ..

وأطرق الكهل برأسه وتمتم كأنما يحدث نفسه :

- أنا أعلم أنه أصغرها .. بل أشدها حمقا .

وصمت برهة قصيرة ثم ضرب الأرض بعصاه فجأة ورفع رأسه قائلا فى حزم واصرار :

- سأذهب خلفه .

انك لا تستطيع .. فلا سبيل لك اليه ..

ثم ان هذا ليس بعملك .. فما كنت راعيه ولا مسئولا عنه وسنخبر السيد أنه لم يكن من العقل فى شىء أن نترك القطيع كله لنلقى بأنفسنا الى الهاوية خلف هذا الصغير الأحمق .. هيا بنا يا أبتاه فان الله لم يهبنا بعد أجنحة ..

- سأسير حتى نهاية الوادى ثم أهبط من الممر الأسفل كى أخلصه .

– أتدرى أن المسافة ليست أقل من تسعة أميال .. وفوق ذلك لن تستطيع الوصول اليه .. فالمكان هناك شديد الانحدار بحيث لا يمكن السير عليه .. ولكن الكهل كان قد حزم أمره فلم يجبهما بكلمة .. وأولاهما ظهره .. وسار فى سبيله آخذا فى الصعود على المنحدر المترامى فوق الأرض الصلبة الملاصقة لحافة الهاوية .

وكان الصوت الخافت يطرق سمعه بين لحظة وأخرى ، وقد أخذ يدب متكئا على عصاه والشمس قد توسطت كبد السماء وامتدت منها ألسنة من السعير تلفح وجهه وتلهب جسده ، وبدا الطريق أمامه شاقا طويلا .. وساقاه النحيفتان المتخاذلتان لم تعودا تحتملان بعد مشقة السير ووعورة الطريق .. فكان يحس فيهما برجفة كلما أوغل فى السير .. ولكنه كان قد صمم على أن يصل اليه ، وأخذ يدبر فى رأسه خطة الوصول .. لقد كان عليه أن يصل أولا الى مجموعة الشجر القائمة عند رأس الأخدود ، ثم يتناول غذاءه ويستريح برهة قبل أن يعاود السير للهبوط من الممر .

وأخيرا بلغ هدفه الأول .. منهوك القوى .. مبهور الأنفاس وقد سرت الرجفة من ساقيه الى كل جسده . فارتمى كأنه كومة من الحطام مستظلا بتلك البقعة الضئيلة التى خلفتها الشجيرات الخشنة الضامرة .. وبعد هنيهات استعاد الرجل بعض ما وهن من قواه وما فتر من عزمه .. ومد يده الى الحافظة التى تعود أن يضع فيها قوت يومه .. فلم يجدها .. فأحس بالعرق البارد يتصبب من وجهه .. انه لم يذق طعاما طيلة يومه .. وقد برح به السغب عقب ذلك السير الشاق المتواصل .. وهو فى حاجة الى ما يقيم أوده حتى يستطيع مواصلة السير والا سقط اعياء فى منتصف الطريق .

ولم يحس الرجل بألم الجوع قدر ما أحس بمرارة الفشل .. فقد أوجع قلبه أن تقعده حاجته الى الطعام عن انقاذ ذلك الحمل الصغير الأحمق الذى دفعه طيشه الى أن يتسلل من بين القطيع ويضل فى جوف الهاوية ..

وسبح الكهل ببصره فى الوادى المترامى الأطراف وأحس بالهواء يتراقص أمامه من فرط الحرارة التى يتأجج أوارها .. ثم مد يده الى عصاه ببطء وتحامل على نفسه وانتصب واقفا .. لقد صمم على أن يعصب بطنه ويعاود السير .. وليهبه الله من لدنه رحمة ويهيىء له من أمره رشدا .

وتحرك قدماه على الصخور .. وفى حركتهما بطء وتثاقل .. وكان سيره وئيدا كأنما ينتزع ساقيه من الأرض انتزاعا .. وكانت ساقاه مع ذلك تتحركان خطوة فخطوة .

وأخيرا .. وصل الى مسامع الرجل صوت خافت ، ولمحت عيناه بقعة بيضاء ضئيلة فى وسط الجرف الموحش الأسود .. فتجددت قواه .. وأخذت قدماه تتخبطان فى الصخور حتى وصل الى حافة الجرف ولكنه لم يستطع التقدم أكثر من ذلك ، فقد ارتد بصره حسيرا أمام ذلك الانحدار الشديد الذى كانت قدماه أعجز من أن تحاولا تسلقه .. ووقف يرقب الشبح الأبيض الضئيل وقد رفع عقيرته بالصياح وهو لا يستطيع الهبوط أو الصعود .

وأحس الرجل بلهيب الشمس يكاد تحرقه شواظه .. وأدرك أن قواه لا تكاد تساعده حتى على أن يبلغ ظل صخرة يقيه وهج الشمس .. فخر مغشيا عليه فى مكانه .

ولم يعرف كم مضى عليه من الوقت قبل أن تأخذ تلك السحب فى الانقشاع عن رأسه .. ولكنه أحس بذهنه قد عاد يكافح مرة أخرى .. ورأى نفسه يرهف السمع عله يسمع ذلك الصوت الذى كان آخر ما سمعه قبل أن يفقد وعيه ، ولكنه لم يسمع شيئا وفتح عينيه بمشقة ، ونظر الى الجرف الأسود .. الى حيث كانت البقعة البيضاء .. ودهش الرجل ، فقد ابصر البقعة فى مكانه .. ولكن كانت هناك بقعة أخرى .. أكبر من الأولى حجما .. وقد أخذت تتحرك صاعدة تجاه البقعة الأولى .. يا للعجب ترى أهناك حمل آخر .

ورفع يده يظلل عينيه ، وأخذ يحدق فيما رأى .. فلم يستطع أن يميز حقيقة ذلك الشيء الذى أخذ يتجه نحو الحمل الصغير .. وان كان قد استطاع أن يجزم أنه ليس بحمل آخر .. وبدأ يرقبه وهو يتسلق الجرف بمهارة عجيبة دون أن يجد فى تحركه مشقة ولا عناء كأنما يجد فى كل بقعة موطئا ممهدا لقدميه .

وشعر الرجل بضعفه يعاوده .. وأخذت تلك السحب تتراكم على رأسه مرة أخرى .. وأحس بصوت الحمل يطرق أذنيه .. ولكنه كان فى هذه المرة أشد ارتفاعا وأكثر وضوحا .. ثم فقد وعيه وراح فى غيبوبة . وأفاق مرة أخرى على صوت أقدام تقترب منه .. وفتح عينيه فاذا بصبى يكتسى بثوب أبيض قد أقبل عليه حاملا الحمل الصغير برفق بين يديه ، ونظر اليه من خلال عينين زرقاوين شديدتى الصفاء ، وقال باسما :

- لقد أصبح الحمل آمنا يا أبتاه .. وتستطيع أن تستريح فى ظل هذه الصخرة الكبيرة .

وقام الراعي يتبع الطفل ، فاذا بصخرة كبيرة على قيد خطوات قد ألقت ظلها الداكن على بقعة من الأرض نضرة خضراء كساها العشب الرطيب ، وهبت منها نسمات رقيقة عليلة .

وافترش الكهل الأرض وقد أحس بالغبطة تملأ قلبه وبالهدوء والراحة تحلان فى جسده محل التعب والعناء ونظر الى الصبى متسائلا فى كثير من الدهشة : كيف عثرت عليه ؟

- لقد سمعت صياحه وكنت قريبا منه .

ووضع الرجل يده على رأس الحمل وربت عليه فى عطف وحنان ، ثم قال له مؤنبا .. هكذا تأبى دائما الا أن تلقى بنفسك الى التهلكة .. ما ضرك لو سرت فى الطريق وكففت عن الوثوب هنا وهناك .. ان أكثر ما يشق على

فى نصحك أن النصح لا يجديك نفعا وهكذا النصيحة دائما .. ليست أكثر من كلام يسهل قوله ويصعب سماعه . وقهقه الرجل ثم قال موجها الحديث الى الفتى .

لقد نسيت طعامى .. ولولا ذلك لما وهنت قواى .

– ان معى خبزا .. وخلف هذه الصخرة ينبوع ماء .. وشبع الرجل من جوع وروى من ظمأه ، فتمدد على العشب وقد ملأت السكينة نفسه ، وسادت فترة سكون استغرق خلالها فى أحلام حلوة هادئة حتى أفاق على صوت الصبى يسأله مترفقا :

– كم مضى عليك من الوقت وأنت تعمل راعيا ؟

– منذ ولدت يابنى .. انى لأكاد أذكر نفسي الا راعيا . ولكن كان خيرا لك لو سألت .. منذ كم تركت الرعى ؟ فاننى لم أعد بعد راعيا .. لقد أضحيت فى نظرهم كهلا لا يصلح للرعى ، بل يحتاج الى من يرعاه .. أو كما يسموننى « الحطام » ..

وشرد ذهن الرجل برهة .. ثم عاد يقول فى مرارة :

– كان ذلك منذ اثنى عشر عاما .. عندما سمعت السيد يقول انه لم يعد يطمئن الى فى رعى القطيع . لأننى قد أصبحت حطاما باليا . فرفعت كمى لأخفى دمعتين اعتصرهما الحزن من قلبى ودفعهما الى عينى .. وخرجت القطعان وبينهما القطيع الذى تعودت أن أرعاه . وقد استبدل بى راع أكثر فتوة وأشد قوة .. ورأيتنى أتسلل خلف القطيع .. لأننى لم أستطيع سوى ذلك .. فقد عزت على الفرقة .. وشق على البعاد .. لقد منعونى من أن أكون راعيه .. ولكنهم لا يستطيعون حرمانى من أن أكون فردا فيه .

ومع ذلك يابنى .. لقد أبى القدر ألا أن ينصفنى .. وأن يريهم أنى لم أصبح حطاما بعد ، وأنه مازال فى بقية من رمق .. انى لأذكر ذلك اليوم كأنما

بالأمس فقط .. وقد أقبل الليل وادلهمت الظلمات .. واستغرق الكل فى نوم عميق .. وكنت أحس بقلق خفى فلم يغمض لى جفن . وعلى حين غرة شعرت بالخطر يوشك أن يحل ، فقد حملت الى الريح رائحته .. وميزت أذ ناى أصوات ذئاب تقترب .. ورأيتنى أقف وحدى وسط القطيع الراقد دون أن أجد أثرا لبقية الرعاة .. ولم أك أدرى كيف أستطيع دفع الخطر وحدى .. ولكننى كنت أحس فى نفسى بأنى سأدفعه . وأخذت الذئاب فى الاقتراب .. وقلبى يخفق فى ضلوعى خفق شديدا .

ونظرت الى السماء فجأة .. فرأيتها مرصعة بالنجوم .. ولكن أحدها كانت تلمع بشكل لم أعهده .. أجل ما رأيت فى حياتى نجمة تضىء كما كانت تضىء تلك النجمة العجيبة .. ونظرت الى الأرض فاذا بالظلمة انقشعت .. واذا بها قد غمرت بضوء مشرق ذهبى هبط عليها من النجمة الوضاءة .

وخيل الى أنى أسمع فى ذلك الوقت صوتا عجيبا .. أشبه بصوت طفل حديث الوضع .. وأحسست بالسكينة تملأ قلبى والاطمئنان يغمر نفسى .. وتلفت حولى فاذا بالذئاب قد ادارت رؤوسها ببطء وعادت فى سكون لا تلوى على شىء كأنما قد مسها سحر . وصمت الكهل برهة ثم رفع بصره الى الصبى وقال فى صوت يملؤه الرضا والغبطة .. ومنذ تلك الليلة وأنا أحس بالكثير من العزاء .. وأقسمت بعد ذلك ألا أفارق القطيع قط .. حتى يخمد منى النفس وحتى يحملوا الحطام الى جدثه .

ونظر اليه الصبى وقد أشرق وجهه بابتسامه حلوة ثم قال :

– يا أبتاه .. انك لست حطاما .. انك رجل قوى .. فقوة المرء ليست فى جسده .. بل فى قلبه وفى ايمانه .. ان هناك أناسا يولدون حطاما ويعيشون حطاما ويذهبون الى الأجداث حطاما . أما أنت فقد كنت بالايمان قويا . يوم ولدت . ويوم تموت . ويوم تبعث حيا . وأخيرا نهض الرجل وهم بتوديع

الصبى قائلا ان أمامه مرحلة شاقة للعودة ولكن الصبى أنبأه أنه سيعود معه ليحمل له الحمل وليقوده الى طريق قصير يوفر عليه عناء السير .

وسار الرجل خلف الصبى وقد أحس أن قدميه قد ذهبت عنهما تلك الرجفة .. ولم يطل بهما السير حتى أبصر الرجل بنفسه فى مكان تحف به الأشجار الباسقة ، وسمع صوادح الطير تغرد على أغصانها وأحس باشراق فى نفسه وضياء فى قلبه .

ومد الرجل يده مودعا الصبى وقال له فى صوت يفيض بالشكر :

- أنت ولد طيب قوى .. وعندما تصبح رجلا ستكون من خير الرعاة .. كم عمرك الآن ؟

وأجابه صوت الصبى وقد أخذ فى الابتعاد : اثنا عشر عاما !

وأحس الرعاة أن الكهل قد طالت غيبته وخشوا أن يكون قد مسه ضر فعادوا للبحث عنه ، فوجدوه قد رقد فى منتصف الطريق فى تلك البقعة التى خارت فيها قواه من الجوع والتعب . وأبصروا به جثة هامدة تتلظى فى هجير الشمس .. فرثوا له .. ولكنهم لو أدركوا أن روحه تنعم فى ظلال الجنان .. لرثوا لأنفسهم ..

الصبى قائلا ان أمامه مرحلة شاقة للعودة ولكن الصبى أنبأه أنه سيعود معه ليحمل له الحمل وليقوده الى طريق قصير يوفر عليه عناء السير .

وسار الرجل خلف الصبى وقد أحس أن قدميه قد ذهبت عنهما تلك الرجفة .. ولم يطل بهما السير حتى أبصر الرجل بنفسه فى مكان تحف به الأشجار الباسقة ، وسمع صوادح الطير تغرد على أغصانها وأحس باشراق فى نفسه وضياء فى قلبه .

ومد الرجل يده مودعا الصبى وقال له في صوت يفيض بالشكر :

- أنت ولد طيب قوى .. وعندما تصبح رجلا ستكون من خير الرعاة .. كم عمرك الآن ؟

وأجابه صوت الصبى وقد أخذ فى الابتعاد : اثنا عشر عاما !

وأحس الرعاة أن الكهل قد طالت غيبته وخشوا أن يكون قد مسه ضر فعادوا للبحث عنه ، فوجدوه قد رقد فى منتصف الطريق فى تلك البقعة التى خارت فيها قواه من الجوع والتعب . وأبصروا به جثة هامدة تتلظى فى هجير الشمس .. فرثوا له .. ولكنهم لو أدركوا أن روحه تنعم فى ظلال الجنان .. لرثوا لأنفسهم ..